بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أحمدك اللهُمَّ حمدَ الشاكرينَ ، وأصلِّي وأسلِّم على جميع الأنبياءِ والمرسلين، وعلى جميع من اتَّبعَ خُطَاهُم، وسار على هداهُمْ ولم يفرِّقْ بين أحدٍ منهُمْ منذُ بدْءِ الخليقةِ إلى يوْمِ الدِّينِ..

وبعد ..

تُعد مقدمة ابن خلدون والتي اشتهرت بهذا الاسم مدخلًا موسَّعًا لكتابه الشهير « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ... »

ولقد تناول ابن خلدون في هذه المقدمة حقائق جغرافية وفلكية كثيرة، وأحوال البشر واختلاف طبائعهم، والبيئة وأثرها في الإنسان، وتطور الأمم والشعوب وأسباب انهيارها... إلى غير ذلك من مسائل العلوم الاجتماعية التي جعلت من ابن خلدون مؤسسًا لعلم الاجتماع، حيث سبقت آراؤه وأفكاره ما توصَّل إليه الفيلسوف الفرنسي « كونت » بعد ذلك بعدة قرون.

وكانت نظرات ابن خلدون في أحوال المجتمع الإنساني ، أو ما أسماه بأحوال العمران البشري نقلة عظيمة أيضًا في دراسة التاريخ التي لم تعد مجرَّد سَرْدٍ للأحداث، وإنما أصبحت ميدانًا للتفكر والتحليل والاستنباط.

ويعالج ابن خلدون في مقدمته ما نسميه الآن « الظواهر

الاجتماعية » ، وما يسميه هو « واقعات العمران البشري » أو « أحوال الاجتماع الإنساني » بالتمثيل لها في فاتحة مقدمته، إذ يقول : « إنه لما كانت طبيعة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحُّشِ والتأنُّسِ والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب، والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..» ويقول: « ونحن الآن نُبيِّنُ في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع » .

لقد احتل ابن خلدون في التراث العربي الإسلامي، وفي الفكر الغربي المعاصر مكانة متميزة، ونُظر إليه على أنه صاحب رؤية حضارية، خاصة فيما يتعلق بدراسة التاريخ البشري والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري.

على أن بعض الباحثين يرى أن أفكار ابن خلدون ليست غريبة عن أعمال من سبقه من علماء المسلمين على الرغم من اشتهار « المقدمة »، دون غيرها من أعمال معرفية أخرى.

لقد كان ابن خلدون شخصية فذَّة ، لها وقع وبصمات عميقة في تاريخ الأمة الإسلامية، ويكفي أنه كان أول من كتب فيما نعرفه اليوم من علم الاجتماع، لقد كان هذا الرجل - حقًّا - عبقريًّا بالفعل. وهو الذي قال:

« ... أنشأت في التاريخ كتابًا ، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابًا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابًا بابًا، وأبديتُ فيه

لأولية الدول والعمران عللًا وأسبابًا.. وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكًا غريبًا، واخترعته من بين المناحي مذهبًا عجيبًا، وطريقة مبتدعة وأسلوبًا.. استوعب أخبار الخليقة استيعابًا، وأعطى لحوادث الدول عللًا وأسبابًا وأصبح للحكمة صوانًا وللتاريخ جرابًا..

وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء، راغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة الفضاء، النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء».

تأتي هذه الطبعة من «المقدمة»، مع ما بذلته من جهد في خدمتها إن كان فيه من توفيق وسداد فمن الله وإن كان فيه من خطأ أو سهو أو نسيان فمن نفسي - أسأل الله المغفرة - نتداركه في طبعات قادمة إن شاء الله، كما أرجو من الله سبحانه وتعالى أن تكون عونًا للباحثين والدارسين لفكر العلامة ابن خلدون.

وفي الختام أتوجه بالشكر - فإنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله - إلى المهندس / مصطفى عاشور صاحب «مكتبة ابن سينا» على الاهتمام المتميز في نشر أمهات كتب التراث، وعلى تكليفي بهذا العمل.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة - إنه نعم المولى ونعم النصير..

أبو عبد الرحمن

كفر المنشي القبلي - المنوفية - مصر

التعريف بالمؤلف

اسمه :

عبد الرّحمن بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن خلدون الحضرمي.

مولده ونشأته :

ولد ابن خلدون في تونس عام ٧٣٢ هـ / ١٣٢٢ م. لأسرة يمتد أصلها إلى قبيلة يمنية بحضرموت. كان والدُه فقيهًا وهب حياته للفقه والأدب.

وفي تونس نشأ ابن خلدون وبدأ في حفظ القرآن الكريم وتجويده ، كما درس العلوم الشّرعية واللغة العربية على يد والدِه، وحرص والدُه على أن يتلقى ابن خلدون العلوم من أئمة العلم في وقته. عمل ابن خلدون في بداية حياته في الوظائف الحكومية فترة طويلة.

تنقلاته :

ترك ابن خلدون تونس ورحل ، فاستقر في بسكرة بالجزائر، ثم رحل منها إلى قسطنطينة بالجزائر أيضًا، ثم هاجر إلى «فاس»[١] تاركًا أهله في قسطنطينة. عكف ابن خلدون أثناء مقامه بفاس على النّظر والقراءة ولقاء أهل العلم من أهل المغرب وأهل الأندلس. ورحل ابن خلدون إلى الأندلس، ثم عاد إلى الجزائر، وعمل فيها خطيبًا في جامع القصبة، ثم ارتحل بعد ذلك إلى تلمسان هو وأسرته، وفي تلمسان عكف ابن خلدون فترة على التّأليف والقراءة ثم غادرها إلى قلعة بني

(١) «فاس» : إحدى مدن المغرب الأقصى .

سلامة بالجزائر فقضى بها أربع سنين، وخلال تلك الفترة صنف ابن خلدون كتابه «العِبر» ثم عاد إلى تونس.

استقراره بالقاهرة :

ثم عزم ابن خلدون على حج بيت الله الحرام عام ٧٨٤ هـ فركب البحر أربعين يومًا حتى قدم الإسكندرية، فوصلها بعد تولي الملك الظّاهر برقوق العرش بعشرة أيام، ولم يتمكن من الحج في هذا العام فارتحل إلى القاهرة.

وفي القاهرة انهال عليه طلبة العلم وجلس للتدريس بالجامع الأزهر وعظمت منزلته فيه وأكرمه السّلطان برقوق، وبعد استقراره بالقاهرة أرسل في طلب أهله ولكن السّلطان في تونس رفض ذلك، طمعًا في عودته إلى تونس، فاستشفع السّلطان برقوق، فكتب برقوق إلى السّلطان في تونس.

عُيِّنَ ابن خلدون مدرسًا بالمدرسة القمحية التي كانت بجوار مسجد عمرو بن العاص، ثم قاضي المالكية في مصر، وفي تلك الفترة عاد أهله من تونس في سفينة فأصابها قاصف من الرّيح فغرقت ومات أهله جميعًا، فحزن لذلك حزنًا شديدًا.

أقام ابن خلدون في مصر قرابة ٢٤ عامًا، لم يغادرها إلّا للحج، ومرة أخرى لزيارة بيت المقدس، والثّالثة للقاء تيمورلنك في الشّام.

إنجازاته :

ترك ابن خلدون عددًا قليلًا من المؤلفات، أشهرها كتاب «العبر»، ومن كتبه «شرح البردة»، وكتاب في «الحساب»، ورسالة في «المنطق»، و«شفاء السائل لتهذيب المسائل» وله شعر.

كما تناول كُتَّابٌ من العرب وغيرهم سيرته وآراءه في مؤلفات خاصة، منها: «حياة ابن خلدون» لمحمد الخضر بن الحسين، و«فلسفة ابن خلدون» لطه حسين، و«دراسات عن مقدمة ابن خلدون» لساطع الحصري (جزءان)، و«ابن خلدون.. حياته وتراثه الفكري» لمحمد عبد الله عنان، و«ابن خلدون» ليوحنا قمير، ومثله لعمر فروخ[١].

ومن أكبر إنجازات ابن خلدون أنه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، وعلم العمران، وواضع أسس علم التّاريخ.

وفاته :

في رمضان عام ٨٠٨ هـ وافته منيته بمصر ودفن فيها .

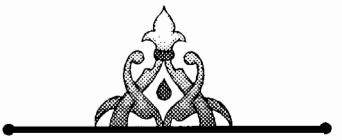

(١) الأعلام للزركلي، ج ٣ ص٢٣٠ .

عملي في هذا الكتاب

لقد حاولت أن أصلَ بهذا الكتاب أن يكون في صورةٍ زاهيةٍ، وحلة بهية، وهذا بجهدي القاصر، المُقِلّ ، وسلكت في صنيعي هذا ما يلي :

١ - قمت بتشكيل وترقيم النصوص الواردة في الكتاب قدر المستطاع حتى يسهل الرجوع إليها عند طلبها بغير عناءٍ .

٢ - عزوت الآيات القرآنية إلى سورها ، مع ضبطها ضبطًا كاملًا.

٣ - قمت بتخريج معظم الأحاديث النبوية التي وردت في الكتاب ، وذلك ما استطعت العثور عليه من كتب الأحاديث .

٤ - التعريف والترجمة لبعض الشخصيات والأعلام التي وردت في الكتاب .

٥ - شرح ما غمض من الألفاظ شرحًا مختصرًا يوضح المراد ، قدر المستطاع.

٦ - عمل مقدمة للكتاب ، وترجمة للمؤلف بالتعريف له ، ومولده ونشأته وبعض إنجازاته .

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة كتاب العبر

يقول العبدُ الفقيرُ إلى رحمة ربه الغنيُّ بلطفه عبدُ الرَّحْمنِ بنُ محمدِ بنِ خَلْدونَ الحَضْرَميُّ وَفَّقَهُ اللَّهُ تعالى:

الْحَمْدُ للّهِ الذِي لَهُ العِزَّةُ والجبرُوتُ وَبِيَدِهِ الملكُ وَالملكُوتُ ولهُ الأسماءُ الْحُسْنىٰ والنُّعوتُ، العالِم فلا يَعزُبُ عَنهُ ما تُظْهِرُهُ النَّجْوى أو يُخْفِيه السُّكُوتُ، القادِرُ فَلَا يُعْجِزهُ شَيْءٌ فِي السَّمواتِ والأَرضِ وَلَا يفوتُ . أنْشأَنا من الأرضِ نَسَمًا، وَاسْتَعْمَرَنَا فِيهَا أجيالًا وأُمَمًا، ويَسَّر لنا منها أرْزَاقًا وقِسَمًا تَكنُفُنا الأَرحامُ والبيوتُ، وَيكفلُنا الرّزقُ والقوتُ، وتُبلينا الأيامُ والوقُوتُ، وتَعْتَوِرُنَا الآجَالُ التّي خُطَّ علينا كتابُها الموقُوتُ، وله البقاءُ والثُّبوتُ، وهو الحيُّ الذي لا يموتُ والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدِنا ومَولانا محمَّدِ النَّبيِّ الأُميِّ العربيِّ المكتُوبِ في التَّوراةِ والإنْجِيلِ المنْعُوتِ، الذي تمخَّضَ لِفصَالِهِ الكونُ قبل أن تَتعاقبَ الآحَادُ والسُّبوتُ، ويَتَباينَ زُحَلُ واليَهموت[1] وشَهِدَ بِصدْقِهِ الحمامُ والعَنْكبوتُ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذَّينَ لهم في محبَّتِهِ واتِّباعِهِ الأَثَرُ البَعيدُ والصِّيتُ، والشَّمْلُ الجميعُ في مُظاهَرتِهِ ولعدُوِّهمُ الشَّمْلُ الشَّتيتُ، صَلَّى اللَّهُ عَليهِ وَعَليهِمْ ما اتَّصَلَ بالإسْلَامِ جَدُّهُ[2] المبْخُوتُ وانْقطَع بالكُفرِ حَبْلُهُ المبتوتُ وسلَّم كَثيرا.

(أما بعد) فَإنَّ فَنَّ التَّاريخِ مِنَ الفُنُونِ الَّتِي تَتَداولُهُ الأُممُ والأَجيالُ وتُشَدُّ إليهِ الرَّكَائِبُ والرِّحَالُ وتَسْمُو إلى مَعْرِفَتِهِ السُّوقةُ والأَغْفَالُ وتَنافَسُ فيه الملُوكُ والأَقْيالُ، وَيَتَسَاوَى في فَهْمِهِ الْعُلَماءُ والْجُهَّالُ، إذ هُوَ في ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى إخْبارٍ عَنِ الأَيَّامِ وَالدُّوَلِ وَالسَّوابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الأُوَلِ، تَنْمُو فِيهَا الأَقْوالُ، وَتُضْرَبُ فِيها الأَمْثالُ، وَتُطْرَفُ بِهَا الأَنْدِيَةُ إذا غَصَّا الاحْتِفَالُ، وتؤدِّي إلَينَا شَأْنَ الخَليقَةِ كَيفَ تَقلَّبَتْ بها الأَحْوالُ، وَاتَّسعَ للدُّوَلِ فِيهَا النِّطاقُ والْمَجَالُ، وعَمَرُوا الأَرْضَ حتَّى نَادَى بهم الارْتِحَالُ، وَحَانَ مِنْهُمُ الزَّوَالُ، وَفِي بَاطِنِهَ نَظَرٌ

(١) اليهموت: هو النون، أي الحوت الذي على ظهره الأرض السابعة، ويسمى أيضًا: لوتيا.

(٢) جدّ : كان له حظ، فهو مجدود.

وَتَحْقِيقٌ، وَتَعْليلٌ لِلْكَائِنَاتِ ومباديها دقِيقٌ، وَعِلْمٌ بِكَيفيَّاتِ الْوُقَائِع وأَسبَابِهَا عَمِيقٌ، فهو لذلك أَصِيلٌ في الحكْمةِ وعَريقٌ وَجَدِيرٌ بأن يُعدَّ في عُلومِهَا وَخَلِيقٌ.

وإنَّ فُحولَ المؤرِّخينَ فِي الإِسلامِ قَدِ اسْتوعَبُوا أَخْبارَ الأَيامِ وجمعوها وَسطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الدَّفاتِرِ وأَوْدعُوهَا ، وخَلطَها المُتَطَفِّلُونَ بِدَسائِسَ مِنَ البَاطِلِ وَهَمُوا فِيهَا أَوِ ابْتَدعُوهَا، وزَخَارِفَ مِنَ الرِّوَاياتِ الْمُضعَّفةِ لَفَّقُوهَا ووضَعُوهَا، واقْتَفَى تلكَ الآثارَ الكَثيرُ مِمَّن بَعْدهُم واتَّبعُوهَا وأَدَّوْهَا إِلينَا كما سَمِعُوها، وَلَم يُلاحِظُوا أَسْبابَ الوَقَائِعِ والأَحْوَالِ، ولَمْ يُراعوها، وَلَا رَفَضُوا تُرَّهاتِ الأَحَاديثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَالتَّحقِيقُ قليلٌ وَطرفُ التَّنقيحِ في الغالب كَليلٌ[1]، والغَلطُ والوَهمُ نَسِيبٌ لِلأَخْبارِ وَخليلٌ، والتَّقليدُ عَريقٌ في الآدَمِيينَ وَسَليلٌ، والتَّطفُّلُ على الفنُونِ عَريضٌ وَطويلٌ، وَمَرْعي الْجَهْلِ بَينَ الأَنامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ، والحَقُّ لا يُقَاومُ سُلطانُهُ وَالبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشَهابِ النَّظرِ شَيْطَانُه، والنَّاقِلُ إِنما هو يُملى ويَنقلُ، وَالبَصيرةُ تنقدُ الصَّحِيح إذا تَمقُل[2]، والعلم يَجْلُو لها صَفحاتِ الصَّوابِ ويَصْقلُ.

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الأَخبارِ وأَكثَرُوا وَجَمَعُوا تَواريخَ الأُمَمِ والدُّولِ في العالمِ وسَطَّرُوا. وَالَّذِينَ ذَهبُوا بِفَضلِ الشُّهْرَةِ والأَمانةِ المعْتبرةِ، واسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُم فِي صُحُفِهم المتَأَخِّرَةَ، هُمْ قَلِيلونَ لا يَكادونَ يُجاوِزونَ عَدَدَ الأَنامِلِ، وَلَا حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ[3]، مِثلُ ابْنِ إِسْحاق والطَّبريِّ وَابْنِ الْكَلْبِيّ وَمُحمَّد بْنِ عُمرَ الْوَاقِدِيِّ وَسَيْف بنِ عُمرَ الأَسَديِّ وَالمسعُودِيِّ وَغَيرِهِمْ مِنَ المشَاهِيرِ، المتميِّزِينَ عَنِ الجمَاهِيرِ وإِنْ كانَ في كُتُبِ المسْعُودِيِّ والوَاقِدَيِّ مِنَ المطْعَنِ والمغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الأَثْبَاتِ، وَمشْهُورٌ بَيْنَ الحَفَظَةِ الثِّقَاتِ، إِلَّا أَنَّ الكَافَّةَ اخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ، واقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ في التَّصْنِيفِ واتِّبَاعِ آثَارِهِم والنَّاقِدُ البصِير قسطاسُ نفسِه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارِهِمْ، فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجعُ إِليهَا الأَخْبَارُ، وَتُجْمَلُ عَلَيها الرِّوَاياتُ وَالْآثَارُ ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّواريخِ لهؤُلاءِ عَامَّةُ المنَاهِجِ والمسَالِكِ، لعُمُومِ الدَّوْلَتَينِ صَدْرِ الإِسْلَامِ[4] فِي الآفَاقِ والمَمَالِكِ، وتَنَاوُلهَا البَعِيدَ مِنَ الغَايَاتِ في المآخِذِ والمتَارِكِ، ومِنْ هؤُلاءِ مَنِ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ المِلَّةِ مِنَ الدُّولِ والأُمَمِ، والأَمْرِ العَمَمِ، كالمسعُودِيِّ، ومَنْ نَحَا مَنْحاهُ.

---

(١) كليل: ضعيف. (٢) تمقل: تنظر بعينك وتختار. (٣) العوامل : النجوم .

(٤) الدولتين : أي دولة بني أمية والدولة العباسية ، وغالبًا ما يذكر ابن خلدون كلمة «صدر الإسلام» قبلها إذا أراد التعبير عن عصور الخلافة الإسلامية.

وَجاءَ من بعدِهِم مَن عدَلَ عن الإطْلَاقِ إلى التَّقْييدِ، وَوَقَفَ في العُمومِ وَالإحاطَةِ عن الشَّأْوِ البَعيدِ، فقيَّدَ شَوارِدَ عَصْرِهِ، واسْتَوْعَبَ أَخْبارَ أُفْقِهِ وقُطْرِهِ، وَاقْتَصَرَ على أَحاديثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِه. كما فَعَلَ أَبو حَيَّان مُؤَرِّخُ الأَنْدَلُسِ وَالدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّة بها، وَٱبْنُ الرَّفيقِ مُؤَرِّخُ إِفْرِيقِيةَ وَالدُّوَلِ التي كانَتْ بالقَيْرَوانِ.

ثم لم يَأْتِ مِنْ بَعد هؤُلاءِ إِلَّا مُقلِّدٌ وَبَليدُ الطَّبْع وَالعَقْلِ أَو متَبَلِّدٌ يَنْسُجُ على ذلك المِنْوال، ويحتذي منه بالمِثالِ، وَيَذْهَلُ عما أَحالَتْه الأَيَّامُ مِنَ الأَحْوالِ، وٱسْتَبْدَلَتْ به من عَوائدِ الأُمَمِ والأَجْيال. فَيَجْلِبُونَ الأَخْبارَ عن الدُّوَلِ، وَحِكاياتِ الوقائعِ في العُصورِ الأُوَل، صُوَرًا قد تجرَّدَت عن مَوادّها، وَصِفاحًا انتُضِيَت من أَغْمادِها، وَمَعارفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بطارِفِها وَتِلَادِهَا[١]، إنما هي حوادِثُ لم تُعْلَمْ أُصولُها، وأَنواعٌ لم تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُها ولا تحقَّقَتْ فُصولُها، يُكرّرونَ في مَوضعاتِهِم الأَخْبَارَ المُتَداوَلَةَ بأَعيانها، اتّباعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ المُتَقَدّمينَ بشَأنها، وَيُغْفِلونَ أَمرَ الأَجْيالِ النّاشِئَةِ في ديوانِها، بما أَعْوَزَ عَلَيْهِم من تُرْجُمَانِها، فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عن بَيانها. ثم إذا تَعَرَّضوا لِذِكر الدّوْلَةِ نَسَقوا أَخْبارَهَا نَسْقًا[٢]، محافِظينَ على نَقْلِها وَهْمًا أَوْ صِدْقًا؛ لا يَتَعَرَّضونَ لِبِدايَتِها، ولا يَذْكرون السَّبَب الذي رَفَعَ مِنْ رَايَتِها، وَأَظْهَرَ مَنْ آيَتِها، ولا عِلَّةَ الوقُوفِ عندَ غايَتِها؛ فَيَبقى النَّاظِرُ مُتَطلّعًا بَعدُ إلى ٱفْتِقادِ أَحْوالِ مبادئِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِها، مُفَتّشًا عن أَسْبابِ تَزَاحُمِها أو تَعاقُبِها، باحِثًا عن المُقْنِعِ في تَبائِنِها أو تَناسُبِها، حَسْبَما نَذكُرُ ذلِكَ كلَّه في مُقَدِّمَةِ الكتاب.

ثم جاءَ آخرونَ بإفْراطِ الاخْتصارِ، وَذَهَبوا إلى الاكْتِفاءِ بأَسْمَاءِ المُلوكِ وَالاقْتِصَارِ، مَقْطُوعةً عن الأَنْسَابِ وَالأَخْبارِ، مَوْضوعَةً عَلَيْها أَعْدَادُ أَيَّامهم بحروف الغُبارِ، كما فَعَله ابنُ رَشيقٍ في ميزان العَمَل، ومَنِ ٱقْتَفى هذا الأَثَرَ من الهَمَلِ. وَلَيْس يُعْتَبَرُ لهؤُلاءِ مَقالٌ، وَلا يُعدُّ لهم ثُبوتٌ وَلا ٱنْتقالٌ؛ لما أَذْهَبوا من الفَوَائدِ، وأَخَلُّوا بالْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمؤَرِّخِينَ والعَوَائدِ.

وَلمَّا طالَعْتُ كُتُبَ ٱلْقَوْمِ، وسَبَرْتُ غَوْرَ الأَمْسِ وَاليَوْمِ، نَبَّهْتُ عَيْنَ القَريحةِ من سِنَةِ الغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ، وَسُمْتُ التَّصْنيفَ من نفسي وأَنا ٱلْمُفْلِسُ أَحْسَنَ السَّوْمِ[٣]. فَأَنشَأْتُ في التّاريخِ كتابًا، رَفَعْتُ به عن أَحْوالِ النّاشِئَةِ مِن الأَجْيالِ حِجابًا، وَفَصَّلْتُهُ في الأَخبار والاعتِبارِ بابًا بابًا، وَأَبْدَيْتُ فيه لأَوّلِيَّةِ الدُّوَلِ وَالعُمْرانِ عِلَلًا وَأَسْبابًا؛ وَبَنَيْتُهُ عَلى أَخْبارِ الأُمَمِ الَّذِينَ عَمَروا ٱلْمَغْرِبَ

(١) الطارف : المال المستحدث، والتّلاد : المال الأصلي القديم.
(٢) نسق : أي نظم .
(٣) ساومه مساومة وسوامًا : فاوضه في البيع والابتياع.

في هذه الأَعْصارِ، وملؤوا أَكنافَ النَّواحي مِنهُ وَالأَمْصارِ، وَمَا كانَ لهم من الدُّوَلِ الطّوالِ أَوِ القِصار، وَمَنْ سَلَفَ مِنَ الْمُلوكِ وَالأَنْصارِ، وَهُم: العَرَبُ والبَرْبَر؛ إِذْ هُمَا الجيلانِ اللذانِ عُرِفَ بالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُما، وَطالَ فيه على الأَحْقابِ مَثْواهُما، حَتَّى لا يَكادُ يَتَصَوَّرُ فيه ما عداهما، ولا يَعْرِفُ أَهْلُهُ من أَجْيالِ الآدَمِيّينَ سِوَاهُما. فَهَذَّبْتُ مناحيه تَهْذيبًا، وقَرَّبْتُهُ لأَفْهامِ العُلَماءِ وَالخاصَّةِ تَقْريبًا، وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْويبِهِ مَسْلَكًا غريبًا، وَٱخْتَرَعْتُهُ من بين المناحي مَذْهَبًا عجيبًا، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلوبًا. وشرحتُ فيه من أَحوال العُمْرانِ والتَّمَدُّن، وما يَعْرِضُ في الاجْتِماعِ الإِنْسانِيّ من العوارِضِ الذاتِيَّةِ ما يُمْتِعُكَ بِعِلَلِ الكوَائنِ وأَسبابها، وَيُعَرِّفُكَ كيفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ من أَبْوَابِهَا؛ حَتَّى تَنْزِعَ من التّقليدِ يَدَكَ، وَتَقِفَ على أَحْوَالِ ما قَبْلَكَ من الأَيَّامِ وَالأَجْيالِ وما بَعْدَك.

وَرَتَّبْتُهُ على مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ:

المُقَدِّمَةُ : في فضلِ عِلْمِ التّاريخِ وَتحقيقِ مَذاهِبِهِ وَالإِلْماعِ بمغالِطِ المُؤَرِّخين.

الكتاب الأَوَّل : في العُمْرانِ وَذِكْر ما يعرضُ فيه من العَوَارِضِ الذاتيَّةِ من المُلْكِ والسُّلْطَانِ والكسْبِ والمعاشِ والصَّنائِعِ والعُلوم وما لذلِكَ من العِلَلِ وَالأَسْبابِ.

الكتاب الثّاني : في أَخْبَارِ العَرَبِ وَأَجْيالِهِمْ وَدُولِهِمْ منذُ مَبْدأ الخَليقَةِ إلى هذا العَهْدِ، وفيه الإِلْماعُ ببَعْضِ مَن عاصَرَهُمْ من الأُمَمِ المشاهيرِ وَدُوَلِهِمْ مثل النَّبْطِ[1] والسّرْيانِيّين والفُرْسِ وبني إِسرائيلَ والقِبْطِ واليونانِ والرّومِ والتُّرْكِ والإِفْرَنْجَةِ.

الكتاب الثّالث : في أَخْبَارِ البَرْبَرِ ومن إِلَيْهِمْ من زَنَاتَةَ وَذِكرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيالِهِمْ وما كانَ لَهُمْ بدِيارِ الْمَغْرِبِ خاصَّةً من المُلْكِ والدُّوَلِ.

ثم كانَتِ الرِّحلَةُ إِلى ٱلمَشْرِقِ لاجْتِلاءِ أَنوارِهِ، وقَضاءِ الفَرْضِ والسُّنَّةِ في مَطافِهِ ومَزَارِهِ، والوقوفِ على آثارِهِ في دَواوينِهِ وَأَسْفارِهِ، فأَفَدْتُ ما نَقَصَ من أَخْبارِ مُلوكِ العَجَمِ بتلكَ الدِّيارِ، وَدُوَلِ التُّرْكِ فيما مَلَكوهُ من الأَقْطارِ، وَأَتْبَعْتُ بها ما كَتَبْتُهُ في تلك الأَسطار، وَأَدْرَجْتُها في ذِكرِ المُعاصِرينَ لِتِلْكَ الأَجْيالِ من أُمَمِ النّواحي، وَمُلوكِ الأَمْصارِ والضَّواحي؛ سالِكًا سبيل الاخْتصارِ والتَّلخيصِ، مُقْتَدِيًا بالْمَرَامِ السَّهْلِ من العَويص، دَاخِلًا من بابِ الأَسْبابِ على العُمومِ إِلى الأَخْبارِ على الخُصوصِ؛ فَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ الخَليقَةِ اسْتيعابًا، وَذلكَ من الحكَمِ

(١) النَّبط : الأنباط ، وهم شعب سامي، كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية وعاصمتهم سلْع، وتعرف بالبتراء .

النّافِرَةِ صِعابًا، وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوَلِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا، وَأَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صِوَانًا وَلِلتَّارِيخِ جِرابًا[١].

وَلَمَّا كانَ مُشْتَمِلًا على أَخْبارِ العَرَبِ وَالبَرْبَرِ، مِنْ أَهْلِ ٱلمُدُنِ والوَبَرِ، والإِلْماعِ بِمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الكُبَرِ، وَأَفْصَحَ بالذِّكرى وَالعِبَرِ، في مُبْتَدَأ الأَحْوالِ وَمَا بَعْدَهَا من ٱلخَبَرِ، سَمَّيْتُهُ:

« كِتابَ العِبَرِ، وَديوانَ المُبتدأ وَالخَبَرِ، في أَيَّامِ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَالبَرْبَرِ، وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذوي السُّلْطانِ الأَكبَرِ ».

وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا في أَوَّلِيَّةِ الأَجْيالِ وَالدُّوَلِ، وَتعاصُرِ الأُمَمِ الأُوَلِ، وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالحِوَلِ، في القرونِ الخاليَةِ وَٱلمِلَلِ، وما يَعْرِضُ في العُمْرانِ من دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ، وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ[٢]، وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ، وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ، وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ، وَكَسْبٍ وَإِضاعَةٍ، وَأَحْوالٍ مُتَقَلِّبَةٍ مُشاعَةٍ، وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ، وَواقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ، إِلَّا وٱسْتَوْعَبْتُ جُمَلَه، وَأَوْضَحْتُ براهينَهُ وعِلَلَه. فجاءَ هذا الكتابُ فَذًّا بما ضَمَّنتُهُ من العُلوم الغَريبَةِ، وَالحِكَمِ المحجوبَةِ القَريبَةِ. وَأَنا من بَعْدِها موقِنٌ بالقُصورِ، بَيْنَ أَهْلِ العُصورِ، مُعْتَرِفٌ بالْعَجْزِ عن الْمَضاءِ في مِثْلِ هذا القَضَاءِ، راغِبٌ من أَهلِ اليَدِ البَيْضاءِ، والمعارِفِ المُتَّسِعَةِ الفَضَاءِ، النَّظَرَ بعَيْنِ الانْتقادِ لا بِعَيْنِ الارْتِضاءِ، والتَّغَمُّد لما يَعْثُرونَ عليْه بالإِصْلاحِ وَالإِغْضَاءِ. فَالبِضاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ مُزْجاةٌ، والاعْتِرَافُ مِنَ اللَّوْمِ مَنْجاة، والحُسْنى من الإِخْوانِ مُرْتَجَاة، واللَّهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنا خالِصَةً لِوَجْهِهِ الكَريم، وَهُوَ حَسْبي وَنِعْمَ الوَكيل.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ، وَأَنَرْتُ مِشكاتَهُ[٣] لِلْمُسْتَبْصرين وَأَذكيْتُ سِرَاجَهُ، وَأَوضَحْتُ بَيْنَ العُلومِ طَريقَهُ وَمِنْهَاجَهُ، وَأَوْسَعْتُ في فَضاءِ ٱلمَعَارِفِ نِطاقَهُ، وَأَدَرْتُ سِياجَهُ، أَتْحَفْتُ بِهٰذِهِ النُّسْخَةِ[٤] منه خِزانَةَ مولانا السّلطانِ الإِمام المُجاهِدِ، الفاتِحِ الماهِدِ، المُتَحَلّي منذُ خَلْعِ

---

(١) الصِّوان: بكسر الصاد وضمها ما يصان به أو فيه الكتب والملابس ونحوها. والجراب: وعاء يُحفظ فيه الزاد ونحوه.

(٢) الحلة : منزل القوم ، وجماعة البيوت ، ومجتمع الناس .

(٣) المشكاة : السراج .

(٤) قوله : أتحفت بهذه النسخة منه... إلخ، وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله: أتحفت وبعد قوله: وأدرت سياجه، ونصها: التمست له الكف الذي يلمح بعين الاستبصار فنونه ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه، ويميز رتبته في المعارف عما دونه فسرحت فكري في فضاء الوجود وأجلت نظري بين التهائم والنجود في العلماء الركع السجود والخلفاء أهل الكرم والجود حتى وقف الاختيار بساحة الكمال وطافت الأفكار بموقف الآمال وظفرت أيدي المساعي والاعتمال بمنتدى المعارف مشرقة فيه غرر الجمال وحدائق العلوم الوارفة الظلال.... إلى آخر النعوت المذكورة هنا.

التَّمائم وَلوْثِ[١] العَمائِم، بِحلى القانِتِ الزّاهِدِ، المَتوشّحِ من زَكاء المناقِبِ والمحامِدِ، وَكَرمِ الشَّمائِلِ والشَّواهِدِ، بأَجْمَلَ من القَلائِدِ، في نُحورِ الوَلائِدِ[٢]، المُتناوِلِ بالعَزْمِ القَويّ السّاعِدِ وَالجدّ المُؤاتي المُساعِدِ، والْمَجْدِ الطّارِفِ[٣] والتّالِدِ[٤]، ذَوائبَ مُلْكِهِم الرّاسي القواعِدِ، الكَريم المعالي والمَصَاعِدِ، جامِعِ أَشْتاتِ العلومِ والفوائِدِ، وناظِمِ شملِ المعارِفِ الشّوارِدِ، وَمُظْهِرِ الآياتِ الرّبّانِيَّةِ في فضل المدارِكِ الإِنْسانِيَّةِ، بفكره الثّاقِبِ النّاقِدِ، وَرَأْيِهِ الصَّحيحِ المعاقِدِ، النَّيّرِ المذاهِبِ والعَقائِدِ، نورِ الله الواضِحِ المَرَاشِدِ. ونِعْمَتِهِ العَذْبَةِ الْمَوارِدِ، وَلُطْفِهِ الكامِنِ بالْمَراصِدِ للشدائِدِ، وَرَحْمَتِهِ الكريمَةِ المقالِدِ، التّي وسِعت صلاحَ الزّمانِ الفاسِدِ، واستقامةَ المائِدِ من الأَحْوالِ والعَوائِدِ، وَذَهَبَتْ بالخُطوبِ الأَوابِدِ، وَخَلَعَتْ على الزّمانِ رَوْنَقَ الشّباب العائِدِ، وَحُجَّتِهِ التّي لا يُبْطِلُها إِنْكارُ الجاحِدِ ولا شُبُهاتُ المُعانِدِ، (أمير المؤمنين) أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السّلطان (الكبير المجاهد المقدَّس أَمير المؤمنين)، أَبي الحسن ابن السّادةِ الأَعلام من بني مَرين، الَّذِينَ جَدَّدوا الدّينَ، وَنَهَجوا السّبيلَ للمُهْتَدينَ، وَمَحَوْا آثارَ البُغاةِ المُفْسِدين. أَفاءَ الله على الأُمَّةِ ظِلَالَهُ، وَبَلَّغهُ في نَصْر دَعْوَةِ الإِسْلام آمالَهُ.

وَبَعَثْتُهُ إِلى خِزانَتِهِمْ المُوقَفَةِ لِطَلَبَةِ العِلْم بجامِعِ القَرَوِيّين من مَدينةِ فاس حاضِرَةِ مُلْكِهِم، وكُرْسِيّ سُلْطَانِهِم، حيثُ مَقَرُّ الهُدى، وَرِياضُ ٱلْمَعارِفِ خَضِلةُ النَّدى، وَفَضاءُ الأَسْرَارِ الرّبّانِيَّةِ فسيحُ المدى، وَالإِمَامَةُ الكريمةُ الفارسيَّةُ[٥] العزيزةُ إِن شاء الله بنظرها الشّريفِ، وفَضْلِها الغَنيّ عن التَّعْريفِ، تَبْسُطُ له من العِنايَةِ مِهادًا، وَتَفْسَحُ له في جانِبِ القَبولِ آمادًا، فتوضِحُ بها أَدِلَّةً على رُسوخِهِ وَأَشْهادًا. ففي سوقِها تنفُقُ[٦] بَضائعُ الكتّابِ، وعلى حضْرَتِها تَعْكِفُ رَكائِبُ العُلوم والآدابِ، ومِنْ مَدَدِ بَصَائِرِها المُنيرَة نَتائجُ القَرائِحِ والأَلْبابِ. والله يوزِعُنا شُكْرَ نِعْمَتِها، وَيوفّرُ لنا حظوظَ ٱلْمَواهِبِ من رَحْمَتِها، وَيُعينُنا على حُقوقِ خِدْمَتِها، وَيَجْعَلُنا من السّابقين في مَيْدانِها، المُجلّين في حَوْمَتِها، ويُضْفي على أَهْلِ إِيالَتِها[٧]، وما أَوى من الإِسْلامِ إِلى حَرَمِ عِمالَتِها، لَبُوسَ حِمَايَتِها وحُرْمَتِها؛ وهو سُبْحانَهُ المسؤولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنا خالِصَةً فِي وُجْهَتِها، بريئةً من شَوائِبِ الغَفْلَةِ وشُبْهَتِها؛ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكيل.

---

(١)اللوث : عَصب العمامة .
(٢)الولائد : جمع وليدة ، وهي الجواري .
(٣)الطارف : الجديد .
(٤)التالد : القديم .
(٥)قوله الفارسية، أي المنسوبة إلى الأمير أبي فارس المتقدم ذكره .
(٦)تَنْفُقُ : نفقت البضاعة ، أي راجت وكثر طلابها .
(٧)إيالتها : ولايتها.

المقدمة

في فضل علم التاريخ

وتحقيق مذاهبه والإلمام لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها

اعْلَمْ أَنَّ فَنَّ التّاريخ فَنٌّ عزيزُ ٱلْمَذْهَبِ، جَمُّ ٱلفَوائِدِ، شَريفُ ٱلغايَةِ؛ إِذْ هُوَ يوقِفُنا عَلى أَحْوالِ ٱلماضينَ من الأُمَمِ في أَخْلاقِهِم، وَٱلأَنْبياءِ فِي سِيَرِهِمْ، وَالملوكِ في دُوَلِهِم وَسِياسَتِهم؛ حَتَّى تَتِمَّ فائدَةُ ٱلاقْتِداءِ فِي ذٰلِكَ لِمَن يَرومُهُ في أَحْوالِ الدّينِ والدُّنْيا. فهو مُحْتاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَحُسْنِ نَظَر وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيانِ بِصاحِبِهما إلى ٱلحَقّ وَيُنَكِّبانِ[1] بِهِ عَنِ ٱلمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ لأَنَّ الأَخْبارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيها عَلى مُجَرَّدِ النَّقْلِ، وَلَم تُحَكَّمْ أُصولُ ٱلعَادَةِ وَقَواعِدُ السّياسةِ وَطَبيعَةُ ٱلْعُمْرانِ وَٱلأَحْوالِ في الاجْتِماعِ ٱلإِنْسانيّ، وَلا قِيسَ ٱلغائِبُ مِنْهَا بالشّاهِدِ، وَٱلحَاضِرُ بالذاهِبِ، فَرُبَّما لَم يُؤْمَنْ فِيها مِنَ ٱلعُثورِ، وَمَزَلَّةِ ٱلقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَن جادَّةِ الصِّدقِ. وَكَثيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرّخينَ وَٱلْمُفَسّرينَ وَأَئِمَّةِ النَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي ٱلحِكَايَاتِ وَٱلْوَقَائِعِ، لِاعْتِمادِهِمْ فِيها عَلى مُجَرَّد النَّقْلِ غَثًّا أَو سَمينًا، لَم يَعْرِضُوها عَلى أُصُولِها، وَلا قاسوها بِأَشْباهِهَا، ولا سَبَرُوها[2] بِمِعْيَارِ ٱلحِكْمَةِ، وَٱلْوُقوفِ على طَبائِعِ ٱلكائِناتِ، وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَٱلبَصيرةِ فِي ٱلأَخبارِ. فَضَلُّوا عَنِ ٱلحَقّ وَتاهُوا في بَيْداءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ؛ وَلَا سِيَّما فِي إِحْصاءِ ٱلأَعدادِ من ٱلأَمْوالِ وَٱلعَساكِرِ إِذا عَرَضَتْ في ٱلحِكَاياتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلهَذَرِ؛ وَلا بُدَّ مِن رَدّهَا إِلى ٱلأُصولِ وَعَرْضِها عَلى ٱلقَواعِدِ.

وَهٰذا كما نَقَلَ ٱلْمَسعوديُّ وَكَثيرٌ مِنَ ٱلْمُؤَرِخينَ فِي جُيوشِ بَني إِسْرائيلَ، وَأَنَّ موسى – عليه السّلام – أَحصاهُمْ في التّيهِ، بَعْدَ أَنْ أَجازَ مَن يُطِيقُ حَمْلَ السّلاحِ خَاصَّةً من ابن عشرين فما فَوْقَها فَكانوا سِتَّمائَةِ أَلفٍ أَو يَزِيدون.

---

(١) ينكبان : يبعدان.

(٢) سبَره سبْرًا : أي حزره، وخبرَه، يقال: سبر الجرح: قاس غَوْره بالمسبار، وسبر فلانًا: خَبَره ليعرف ما عنده .

وَيَذْهَلُ فِي ذٰلِكَ عَن تَقْدِيرِ مِصْرَ والشّامِ وَٱتّساعِهِما لِمِثْلِ هٰذَا ٱلعَدَدِ مِن ٱلجُيوشِ. لِكُلّ مَمْلَكَةٍ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ حِصَّةٌ من ٱلحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقومُ بِوَظائِفِها وَتضيقُ عَمَّا فَوْقَها؛ تَشهَدُ بِذٰلِكَ ٱلعَوائِدُ ٱلْمَعْرُوفَةُ وَٱلأَحْوالُ ٱلْمَألوفَةُ.

ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلجُيوشِ ٱلبالِغَةِ إِلى مِثْلِ هٰذَا ٱلعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَها زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لِضِيقِ ساحَةِ ٱلأَرْضِ عَنْها، وَبُعْدِهَا إِذا ٱصْطَفَّتْ عن مَدى ٱلبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا أَوْ أَزْيَدَ، فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هٰذانِ ٱلفَريقانِ أَوْ تكونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَّيْنِ وَشَيءٌ من جَوانِبِهِ لا يَشْعُرُ بِٱلجَانِبِ ٱلآخَرِ. وَٱلحاضِرُ يَشْهَدُ لِذلكَ؛ فٱلماضي أَشْبَهُ بِٱلآتي مِنَ ٱلماءِ بِٱلماءِ.

وَلَقَدْ كانَ مُلْكُ ٱلْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُم أَعْظَمَ من مُلْكِ بَنِي إِسْرائيل بِكَثيرٍ، يَشْهَدُ لذلِكَ ما كانَ مِن غَلَبِ بَخْتَنَصَّرَ لَهُمْ، وَٱلْتِهَامِهِ بِلَادَهُمْ، وَاسْتيلائِهِ، عَلَى أَمْرِهِم، وَتخريبِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ قاعِدَةِ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطانِهِمْ، وَهُوَ من بَعضِ عُمَّالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ. يُقالُ إِنَّه كان مَرْزُبانَ[1] ٱلْمَغْرِبِ من تُخومِهَا[2]. وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِٱلْعِرَاقَيْنِ وَخُراسانَ. وَما وَراءَ النَّهْرِ وَٱلأَبْوابِ أَوْسَعَ مِن مَمالِكِ بَني إِسْرائيلَ بِكَثيرٍ. وَمَعَ ذٰلِكَ لَم تَبْلُغْ جُيوشُ ٱلْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هٰذَا ٱلعَدَدِ وَلا قَريبًا مِنْهُ. وَأَعْظَمُ ما كانَتْ جُموعُهُمْ بِٱلْقَادِسِيَّةِ مائةٌ وَعِشْرينَ أَلْفًا، كُلُّهُمْ مَتْبوعٌ عَلى ما نَقَلَهُ «سَيْف» قال: وَكانوا في أَتْباعِهِمْ أَكْثَرَ مِن مائَتَي أَلْفٍ. وَعن عائِشَةَ وَٱلزهْرِيّ: أَنَّ جُموعَ رُسْتُم ٱلَّتِي زَحَفَ بِها لِسَعْدٍ بِٱلْقادِسِيَّةِ إِنَّما كانوا سِتّينَ أَلفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ.

وَأَيضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنو إِسرائيل مِثْلَ هٰذا ٱلعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطاقُ مُلْكِهِمْ وَٱنْفَسَحَ مَدى دَوْلَتِهِمْ؛ فَإِنَّ ٱلعِمالَاتِ[3] وَٱلْمَمالِكَ في الدُّوَلِ على نِسْبَةِ الحامِيَةِ والقَبيل القائِمينَ بها في قِلَّتِها وَكَثْرَتِها؛ حَسْبَما نُبيِّنُ في فَصْلِ ٱلْمَمَالِكِ مِن الكِتاب الأَوَّل. والقَوْمُ لم تَتَّسِعْ ممالِكُهُمْ إِلى غَيْرِ الأُرْدُنِ وَفِلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ، وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِن الحِجازِ على ما هُوَ ٱلْمَعروفُ.

وأَيضًا فَالَّذِي بَين موسى وإِسرائيلَ إِنَّما هُوَ أَرْبَعَةُ آباءٍ على ما ذكره المُحقّقونَ، فَإِنّهُ موسى ابنُ عِمْرانَ بن يَصْهُرَ بن قاهَثَ بفتح الهاء وكسرها بن لاوي بكسر الواو وفتحها بنِ يَعْقوبَ وَهُو إِسرائيلُ الله، كذا نَسَبُهُ في التّوراة. وَالمدَّة بَيْنَهُما على ما نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ، قال: دَخَلَ إِسْرائيلُ مِصْرَ مع وِلْدِهِ الأَسْباطِ وَأَوْلادِهِم حين أَتَوْا إِلى يوسُفَ سَبْعين نَفْسًا؛ وَكانَ مُقامُهُمْ بِمَصْرَ إِلى أَنْ خَرَجوا مَعَ موسى- عَلَيْه السّلام- إِلى التّيهِ مائَتَيْنِ وَعِشْرين سَنَةً، تَتَداوَلُهُمْ مُلوكُ

(١) المرزبان : رئيس الفرس . (٢) تخومها : حدودها .

(٣) العمالات : المدن ، وهو مصطلح خاص بابن خلدون.

القِبْطِ مِنَ الفَراعِنَةِ. وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيالٍ إِلى مِثْلِ هذا العَدَدِ. وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الجُيوشِ إِنَّما كانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمانَ وَمَنْ بَعْدَهُ فَبَعيدٌ أَيْضًا؛ إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمانَ وَإِسْرَائيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَر أَبًا. فَإِنَّهُ سُلَيْمانُ بن داودَ بنُ إِيشا بن عَوفِيذَ (ويُقال ابن عُوفِذَ) بن باعِزَ (ويُقالُ بُوعِز) بن سَلَمونَ بن نَحْشون بن عَمّينوذَب (ويقال حَمِّيناذابَ) بَن رَمّ بن حَصْرون (وَيُقال حَسْرون) بن بارِسَ (وَيُقالُ بَيْرِسَ) بن يهوذا بن يَعْقوبَ. ولَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ في أَحَدَ عَشَر من الوُلْدِ إِلى مِثْل هذا العَدَدِ الذي زَعَمُوهُ؛ اللَّهمَّ إِلى المئينِ والآلافِ فَرُبَّما يكون؛ وأَمَّا أَن يَتَجاوَزَ إِلى ما بَعْدَهُمَا من عُقودِ الأَعْدَادِ فَبَعِيدٌ. وَٱعْتَبِرْ ذلك في الحاضِرِ ٱلْمُشاهَدِ والقَريبِ ٱلْمَعروف، تَجِدْ زَعْمَهُمْ بَاطِلًا وَنَقْلَهُمْ كَاذِبًا.

وَٱلَّذِي ثبتَ فِي الإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنودَ سُلَيْمانَ كانَتِ ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا خاصَّةً، وَأَنَّ مُقْرَبَاتِهِ[1] كانَتْ أَلفًا وأَرْبعمَائةِ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةً على أَبْوَابِهِ. هذا هوَ الصَّحيحُ من أَخْبارِهِم. ولا يُلْتَفَتُ إِلى خُرافاتِ العامَّةِ مِنْهُم. وفي أَيَّام سُلَيْمانَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- ومُلْكِهِ كانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتِهِمْ وَاتِّساعُ مُلْكِهِم.

هذا ، وَقَدْ نَجِدُ الكافَّةَ من أَهْلِ العَصْرِ إِذا أَفاضوا في الحديثِ عن عَساكِرِ الدُّوَل ٱلَّتِي لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَريبًا منه، وَتَفاوَضوا في الأَخْبارِ عن جُيوشِ المُسْلِمينَ أَوِ النّصارى، أَوْ أَخَذوا في إِحصاءِ أَمْوالِ الجِباياتِ وَخَراجِ السُّلْطَانِ ونَفَقاتِ المُتْرَفينَ وَبَضائِعِ الأَغْنِياءِ الموسِرين، تَوَغَّلوا في العَدَدِ، وَتَجاوَزوا حُدودَ العَوائِدِ، وطَاوَعوا وَسَاوِسَ الإِغْرابِ. فإِذا ٱسْتَكْشَفْتَ أَصْحابَ الدّواوين عَنْ عساكِرِهِمْ، واستَنْبَطْتَ أَحْوالَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ في بَضائِعِهِمْ وفَوائِدِهِمْ، واسْتَجْلَيْتَ عَوائِدَ المُتْرَفينَ في نَفَقاتِهِمْ، لن تجدَ معشارَ ما يَعُدّونَه. وما ذلك إِلَّا لِولوعِ النَّفْس بالغَرائِبِ، وَسُهولَةِ التَّجاوُزِ على ٱللِّسانِ والغَفْلَةِ على المُتَعَقَّبِ والْمُنْتَقِدِ، حَتَّى لا يُحاسِبَ نَفْسَهُ على خَطَإٍ ولا عَمْدٍ، وَلا يُطالِبَها في الخَبَر بتَوَسُّطٍ وَلا عَدالَةٍ، ولا يُرْجِعَها إِلى بَحْثٍ وتَفتيشٍ، فَيُرْسِلَ عِنانَهُ وَيُسِيمَ في مَراتِعِ الكَذِبِ لِسانَه، ويَتَّخِذَ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةً خَاسِرَةً.

وَمِنَ ٱلْأَخْبَارِ الواهِيَةِ لِلمؤرّخينَ ما يَنْقُلونَه كافَّةً فِي أَخْبارِ التَّبابِعَةِ مُلوكِ اليَمَن وَجزيرةِ العَرَبِ أَنَّهُمْ كانوا يَغْزونَ من قُراهُمْ باليَمَن إِلى إِفْرِيقِيَة والبَرْبَرِ من بلَادِ ٱلْمَغْرِبِ، وأَنَّ إِفْرِيقِشَ

(١) مقرباته : الخيل التي يقرب معلفها ومربطها لكرامتها.

ابن قَيْس بن صَيْفِيّ من أَعَاظِمِ مُلوكِهِمُ الأُوَلِ، وَكانَ لِعَهْدِ موسى - عليه السَّلَامُ- أَوْ قَبْلَهُ بِقَليلٍ، غَزا إِفريقِيَةَ وَأَثْخَنَ في البَرْبَر، وأَنَّه الذِي سَمَّاهُمْ بِهَذا الاسْمِ حين سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ[1] وقال: ما هٰذِهِ البَرْبَرَةُ، فأُخِذَ هذا الاسمُ عنه ودُعوا به من حِينَئِذٍ، وأَنَّه لَمَّا ٱنْصَرَفَ من ٱلْمَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ من حِمْيَرٍ فَأَقاموا بِهَا وَٱخْتَلَطوا بِأَهْلِها، وَمِنْهُمْ صِنْهَاجَةُ وَكُتامَةُ[2] وَمِن هٰذا ذَهَبَ الطَّبَرِيُّ وَٱلْجُرجانيُّ وَٱلْمَسْعودِيُّ وَٱبنُ الكَلْبِيُّ وَٱلْبيليُّ إِلى أَنَّ صِنْهاجَةَ وَكُتامَةَ مِن حِمْيَرَ وَتَأْباهُ نَسَّابَةُ ٱلبَرْبَرِ، وَهُوَ الصَّحيحُ.

وَذَكَرَ ٱلْمَسْعودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذا ٱلإِذْعارِ[3] مِن مُلوكِهِمْ قَبْلَ إِفْريقش وَكَانَ عَلى عَهْدِ سُلَيْمانَ- عَلَيْهِ السَّلامُ- غَزا ٱلْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ، وَكَذٰلِكَ ذُكِرَ مِثْلُهُ عَن يَاسِرِ ٱبْنِهِ مِن بَعْدِهِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرَّمْلِ مِن بِلادِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَم يَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا لِكَثْرَةِ الرَّمْلِ، فَرَجَعَ. وَكَذٰلِكَ يَقولونَ فِي تُبَّعَ ٱلآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبو كَرِب، وَكانَ على عَهْدِ يَسْتَاسِفَ من مُلوكِ ٱلْفُرْسِ الكِيَانِيَّةِ، إِنَّهُ مَلَكَ ٱلموصِلَ وَأَذْرَبِيْجَانَ وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَنَ، ثُمَّ غَزاهُمْ ثانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ، وَإِنَّه بعد ذلك أَغْزى ثَلَاثَةً مِن بَنيهِ بِلَادَ فَارِسَ، وَإِلى بِلَادِ الصّغْدِ مِن بِلَادِ أُمَمِ التّرْكِ وَراءَ النَّهْرِ، وَإِلَى بِلادِ الرّومِ، فَمَلَكَ ٱلأَوَّلُ البِلَادَ إِلى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ المَفازَةَ إِلى الصّينِ، فَوَجَدَ أَخاهُ الثّاني الَّذِي غَزا إِلى سَمَرْقَنْدَ قد سَبَقَهُ إِلَيْهَا، فَأَثْخَنا فِي بِلادِ الصّين وَرَجَعا جَميعًا بالغَنائِم، وَتَرَكوا بِبِلاد الصّينِ قَبائِلَ من حِمْيَرٍ فهم بها إِلى هذا العَهْدِ، وَبَلَغَ الثّالِثُ إِلى قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَها ودوّخ بلادَ الرّومِ وَرَجَعَ.

وَهٰذِهِ الأَخْبَارُ كلُّها بَعيدَةٌ عن الصّحَّةِ، عَرِيقَةٌ في الوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ، وَأَشْبَهُ بِأَحاديثِ القِصَصِ الْمَوْضوعَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبابِعَةِ إِنَّما كانَ بِجَزيرَةِ العَرَبِ وقَرارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعَاءِ اليَمَنِ. وَجَزيرَةُ العَرَبِ يُحيطُ بِهَا البَحْرُ مِن ثَلاثِ جِهَاتِها: فَبَحْرُ الْهِنْدِ من الجَنوبِ، وَبَحْرُ فارِسَ الهابِطُ مِنهُ إِلى البَصْرَةِ من المَشْرِقِ؛ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ[4] الهابِطُ منه إِلى السُّوَيْسِ من أَعمالِ مِصْرَ من جِهَةِ المَغْرِبِ، كما تَراهُ في مُصَوَّرِ الجغْرافيا. فَلا يَجِدُ السّالِكونَ من اليَمَنِ إِلى المَغْرِبِ طَرِيقًا من غَيْرِ السُّوَيْسِ. وَالمَسْلَكُ هُناكَ ما بين بَحْرِ السُّوَيْسِ والبَحْرِ الشّامِيّ قَدْرُ

(١) رطانتهم : أي لغتهم التي يتكلمون بها .

(٢) صنهاجة وكتامة : هما من أكبر قبائل البربر في إفريقيا.

(٣) ذو الإذعار هو : عمرو بن أبرهة ذي المنار بن الحارث الرائش من حمير: أحد التتابعة، ملوك اليمن ولي بعد أخيه بن أبرهة. وهو معاصر للنبي سليمان أو بعده بقليل. الأعلام (٥/٧٢) .

(٤) أي خليج السويس.

مَرْحَلَتَيْنِ فما دونَهُما. وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذا المَسْلَكِ مَلِكٌ عَظيمٌ فِي عَسَاكِرَ مَوْفورَةٍ من غيرِ أَنْ تَصيرَ مِنْ أَعْمالِهِ، هٰذا مُمْتَنِعٌ فِي العادَةِ. وَقَدْ كانَ بِتِلْكَ ٱلأَعْمالِ العَمالِقَةُ وَكَنْعانُ بالشّام والقِبْطُ بِمِصْرَ، ثم مَلَكَ العَمالِقَةُ مِصْرَ وَمَلَكَ بنو إِسْرائيلَ الشّامَ؛ وَلَم يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبابِعَةَ حارَبوا أَحدًا مِنْ هؤُلاءِ الأُمَمِ ولا ملكوا شيئًا من تِلْكَ الأَعْمالِ[1].

وَأَيْضًا فَالشُّقَّةُ من البَحْرِ إِلى المَغْرِبِ بَعيدَةٌ والأَزْوِدَةُ والعُلوفَةُ لِلْعَساكِرِ كثيرَةٌ؛ فَإِذا ساروا في غَيْرِ أَعْمالِهِم احْتاجوا انْتِهابَ الزَّرْعِ والنَّعَمِ وانْتِهابَ البِلادِ فيما يَمُرّونَ عَلَيه، ولا يكفي ذلك للأَزْوِدَةِ وَلِلْعُلوفَةِ عادَةً؛ وَإِن نَقَلوا كِفايَتَهُمْ من ذلك من أَعْمالِهِمْ فَلا تَفي لهم الرَّواحِلُ بِنَقْلِهِ، فَلا بُدَّ وَأَنْ يَمُرّوا في طَريقِهِم كُلِّها بِأَعْمالٍ قَدْ مَلَكوها وَدَوَّخوها لِتَكونَ الميرَةُ مِنْها. وَإِن قُلْنا إِنَّ تِلْكَ ٱلعَساكِرَ تَمُرُّ بِهٰؤُلاءِ ٱلأُمَمِ مِن غَيْرِ أَنْ تهيجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ ٱلميرَةُ بِٱلْمُسالَمَةِ، فَذٰلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ ٱمْتِناعًا، فَدَلَّ على أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَخْبارَ واهِيَةٌ أَوْ مَوْضوعَةٌ.

وَأَمَّا وادي الرَّمْلِ ٱلَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ، فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ في ٱلْمَغْرِبِ عَلى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ الرُّكّابِ وَٱلْقَرى[2] في كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ؛ وَهُوَ على ما ذَكَروهُ من الغَرابَةِ تَتَوافَرُ الدَّواعِي على نَقْلِهِ.

وَأَمَّا غَزْوُهُم بِلادَ الشَّرْق وَأَرْضَ التُّرْكِ، وإِنْ كانَتْ طَريقُهُ أَوْسَعَ من مَسالِكِ السُّوَيْسِ، إِلَّا أَنّ الشُّقَّةَ هنا أَبْعَدُ، وأُمَمَ فَارِسَ مُعْتَرِضونَ فيها دون التُّرْكِ. ولم يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبابِعَةَ مَلَكوا بِلَادَ فَارِسَ ولا بِلَادَ الرُّومِ؛ وَإِنَّما كانوا يُحَارِبونَ أَهْلَ فَارِس على حُدودِ بِلادِ العِراقِ وَمَا بَيْنَ البَحْرَيْنِ وَالحِيرَةِ وَالجَزيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ والفُراتِ وَمَا بَيْنَهُما في الأَعْمالِ، وَقَدْ وَقَعَ ذلك بين يدي الإِذْعار مِنْهُمْ وكيكاوُسَ من مُلوكِ الكِيانِيَّة، وبين تُبَّعِ الأَصْغَر أَبي كرب وَيَسْتَاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضًا، ومع مُلوكِ الطَّوائِفِ بَعدَ الكِيانِيَّةِ والسّاسانِيَّة من بَعْدِهِمْ، بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ بالغَزْوِ إِلى بِلادِ التُّرْكِ والتُّبَّتِ، وهو مُمْتَنِعٌ عادَةً من أَجْلِ الأُمَمِ ٱلْمُعْتَرِضَةِ منهم، والحاجَةِ إِلى ٱلأَزْوِدَةِ وَٱلْعُلوفاتِ مع بُعْدِ الشُّقَّةِ كما مَرَّ. فَٱلأَخْبارُ بِذٰلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخولَةٌ. وَهِيَ لَوْ كانَتْ صَحيحَةَ النَّقْلِ لَكانَ ذٰلِكَ قادِحًا فيها، فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهٍ صحيح؟! وَقَوْلُ ٱبنِ إِسْحَاقَ في خَبَرِ يَثْرِبَ وَٱلأَوْسِ وَٱلْخَزْرَجِ: إِنَّ تُبَّعًا الآخر. سارَ إِلى ٱلْمَشْرِقِ مَحْمولٌ عَلَى ٱلعِراقِ وَبِلَادِ فَارِسَ. وَأَمَّا بِلادِ التُّرْكِ وَالتُّبَّتِ فَلا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِليها بِوَجْهٍ لِمَا تَقَرَّرَ. فَلا تَثِقَنَّ بِما يُلْقى إِلَيْكَ

(١) الأعمال: البلاد، وكما ذكر سابقًا أنه مصطلح استعمله ابن خلدون.

(٢) القَرى : أي الذين يطوفون في البلاد .

مِنْ ذَلِكَ، وَتَأَمَّلِ الأَخْبَارَ وَٱعْرِضْها على القَوانينِ الصَّحيحَةِ يَقَعْ لك تَمْحيصُها بأَحْسَنِ وَجْهٍ. والله الهادي إلى الصَّوَابِ.

فصل

وأَبْعَدُ من ذٰلِكَ وَأَعْرَقُ في الْوَهْمِ ما يَتَناقَلُهُ المُفَسّرونَ في تفْسير سورَةِ «وَٱلْفَجْرِ» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٧]، فَيَجْعَلونَ لَفْظَةَ إِرَم اسمًا لمدينَةٍ وُصِفَتْ بِأَنَّها ذاتُ عِمَادٍ أَيْ أَساطين. وَيَنْقُلون أَنَّهُ كانَ لِعادِ بْنِ عوصِ بن إِرَم[1] ابْنانِ هما شَديدٌ وَشَدَّادٌ مَلكا من بَعْدِهِ، وَهَلَكَ شَديدٌ فَخَلُصَ ٱلْمُلْكُ لِشَدَّادٍ وَدانَتْ له مُلوكُهُمْ؛ وَسَمِعَ وَصْفَ ٱلْجَنَّةِ، فَقالَ لأَبْنِيَنَّ مِثْلَها، فَبَنى مَدينَةَ إِرَمَ في صَحارى عَدَنٍ في مُدَّة ثلثمائةِ سَنَةٍ؛ وَكانَ عُمْرُهُ تسعمائةِ سَنَةٍ، وَأَنَّها مَدينَةٌ عَظيمَةٌ قُصورُها من الذَّهَبِ وأَساطينُها من ٱلزَّبَرْجَدِ والياقوتِ، وفيها أَصْنافُ الشَّجَرِ وَٱلأَنْهارُ المطَّردةُ. ولما تمَّ بناؤُها سارَ إِلَيْها بأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ؛ حَتَّى إِذا كانَ مِنها على مسيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ الله عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السّماءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذٰلِكَ الطَّبَرِيُّ والثَّعالِبيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ المُفَسّرين وَيَنْقُلونَ عن عَبْدِ اللهِ بن قِلابَة مِن الصَّحابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ في طَلَبِ إِبلٍ له فَوَقَعَ عَلَيْها وَحَمَلَ منها ما قَدِرَ عليه، وَبَلَغَ خَبَرُهُ إِلى مُعاوِيَةَ، فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَليه؛ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ ٱلأَحْبارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ؛ فقال: هِيَ: «إِرَمَ ذاتِ العِمادِ»، وَسَيَدْخُلُها رَجُلٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمينَ فِي زَمانِكَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصيرٌ، عَلى حاجِبِهِ خالٌ وَعَلى عُنقِهِ خالٌ، يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ، ثُمَّ ٱلْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ٱبنَ قِلابَةَ فَقالَ: هٰذا وَالله ذٰلِكَ الرَّجُلُ.

وَهٰذِهِ ٱلْمَدينَةُ لَم يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ، في شَيءٍ مِنْ بِقاعِ ٱلأَرْضِ. وصَحارَى عَدَنٍ ٱلَّتي زَعَموا أَنَّها بُنِيَتْ فيها هِيَ فِي وَسَطِ ٱلْيَمَن، وَمَا زالَ عُمْرانُها مُتعاقِبًا وَٱلأَدِلَّاءُ تَقُصُّ طُرُقَها مِن كُلِّ وَجْهٍ، وَلَم يُنْقَلْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَدينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ ٱلإِخْبارِيين وَلا مِنَ ٱلأُمَم. وَلَوْ قالوا: إِنَّها دَرَسَتْ[2] فيما دَرَسَ مِنَ ٱلآثارِ لكان أَشْبَهَ. إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ كلامِهِم أَنَّها مَوْجودَةٌ. وَبَعْضُهُمْ يَقول: إِنها دِمَشْقُ، بِناءً على أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكوها. وَقَدْ يَنْتَهي الهَذَيَانُ بِبَعْضِهِمْ إِلى

(١) هو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: جد جاهلي قديم، يقال إنه كان في بابل، ورحل بولده وأهله إلى اليمن، فاستقر في الأحقاف (بين عمان وحضرموت) وكانت له ولبنيه من بعده حضارة وعناية بالعمران. انظر ترجمته، الأعلام ٢٤٢/٣ - ٢٤٣.

(٢) درست معالمها: اختفت آثارها.

أَنّها غائِبَةٌ، وَإِنَّمَا يَعْثُرُ عليْها أَهْلُ الرِّياضَةِ وَالسِّحْرِ. مَزاعِمُ كلُّها أَشْبَهُ بالخُرافاتِ.

وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلْمُفَسّرينَ على ذلك ما ٱقْتَضَتْهُ صِناعَةُ الإِعْراب فِي لَفْظَةِ ذاتِ العماد أَنَّها صِفَةُ إِرَم، وَحَملوا العِمَادَ عَلَى الأَساطِينَ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكونَ بِناءً. وَرَشَّحَ لهم ذلك قِراءَةُ ٱبْنِ الزّبَيْرِ «عادُ إِرَمَ»، على الإِضَافَةِ من غير تَنْوين. ثم وَقَفوا على تلك ٱلحِكاياتِ ٱلَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَقَاصِيصِ ٱلْمَوْضُوعَةِ وَٱلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلى الكَذِبِ، ٱلْمَنْقُولَةِ فِي عِدادِ ٱلْمُضْحِكَاتِ. وَإِلَّا فَالعِمادُ هِي عِمادُ ٱلْأَخْبِيَةِ بَلِ ٱلْخِيام. وَإِنْ أُريدَ بها ٱلْأَسَاطِينُ فَلا بِدْعَ في وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِناءٍ وَأَساطِينَ عَلَى العُموم، بما اشْتهرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ؛ لا أَنَّهُ بِناءٌ خَاصٌّ في مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيرها. وَإِنْ أُضِيفَتْ كما فِي قِرَاءَةِ ابنِ الزُّبَيْرِ فَعَلى إِضَافَةِ ٱلْفَصِيلَةِ إِلى ٱلْقَبِيلَةِ، كما تَقولُ: قُرَيْشُ كِنَانَة، وَإِلْياسُ مُضَرَ، وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ. وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلى هذا ٱلْمَحْمَلِ ٱلبَعيدِ ٱلَّذِي تُمحِلَتْ[1] لِتَوْجِيهِهِ لأَمْثالِ هٰذِهِ ٱلحِكاياتِ ٱلواهِيَةِ ٱلَّتِي يُنَزَّهُ كِتابُ الله عَن مِثْلِها لِبُعْدِها عَنِ الصِّحَّةِ.

وَمِنَ ٱلحِكَاياتِ ٱلْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ، ما يَنْقُلونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكبَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِن قِصَّةِ ٱلعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بنِ خَالِدٍ مَوْلاه، وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمكانِهِما مِن مُعاقَرَتِهِ إِيَّاهُما ٱلْخَمْرَ، أَذِنَ لَهُما في عَقْدِ النِّكاحِ، دونَ ٱلْخَلْوَةِ حِرْصًا عَلَى اجْتِماعِهِما في مَجْلِسِهِ، وَأَنَّ العَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي ٱلْتِماسِ ٱلْخَلْوَةِ بِهِ، لِمَا شَغَفَها مِن حُبِّهِ حَتَّى واقَعَها، زَعَموا في حَالَةِ سُكْرٍ، فَحَمَلَتْ وَوُشِيَ بِذٰلِكَ للرَّشِيدِ، فَاسْتُغْضِبَ.

وَهَيْهاتَ ذٰلِكَ مِن مَنْصِبِ العَبَّاسَةِ فِي دِينِها وَأَبَوَيْها وَجَلالِها، وَأَنَّها بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ، ليسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجالٍ هُمْ أَشْرافُ الدِّينِ وَعُظَماءُ ٱلمِلَّةِ مِن بَعدِهِ. وَٱلعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ٱلْمَهْدِيّ بن عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ بنِ مُحمَّدٍ السَّجَّادِ بنِ عَلِيّ أَبِي ٱلْخُلَفاءِ، ابنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمانِ القُرْآن، ابنِ العَبَّاسِ، عَمّ النَّبِيّ ﷺ؛ ابْنَةُ خَلِيفَةٍ، أُخْتُ خَلِيفَةٍ، مَحْفوفَةٌ بِٱلْمُلْكِ العَزِيزِ وٱلْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَعُمومَتِهِ، وَإِمَامَةِ ٱلمِلَّةِ ونورِ الوَحْيِ وَمَهْبِطِ ٱلْمَلَائِكَةِ من سائِرِ جِهاتِها، قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبِدَاوَةِ العُرُوبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ الدِّينِ، ٱلبَعِيدَةِ عن عَوَائِدِ التَّرَفِ وَمَرابِعِ الفَوَاحِشِ. فَأَيْنَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ وَالعَفافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْها؟ أَوْ أَيْنَ توجَدُ الطَّهَارَةُ وَالزَّكاءُ إِذا فُقِدَ مِن بَيْتِها؟ أَوْ كَيْفَ تَلْحُمُ نَسَبَها بِجَعْفَرِ بنِ يَحْيى وَتُدَنّسُ شَرَفَها العَرَبِيّ بِمَوْلى من مَوالِي العَجَم؟ بِمَلِكَةِ جَدّه من الفُرْس أَوْ بِوَلاءِ جَدّها من عُمُومَةِ الرَّسولِ وَأَشْرافِ قُرَيْشٍ؛ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبيه[2] وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلى مَنازِلِ ٱلأَشْرافِ.

(١) تمحّل : أي احتال ، يقال تمحّلْ لي خيرًا ، أي اطلبه .

(٢) بضبعه وضبع أبيه : أي بقوته وقوة أبيه .

وَكَيْفَ يَسوغُ مِن الرَّشيدِ أَنْ يُصْهِرَ إلى مَوالي ٱلأَعَاجِم على بُعْدِ هِمَّتِهِ، وعِظَمِ آبائِهِ؟ ولو نَظَرَ ٱلمُتَأَمِّلُ في ذلِكَ نَظَرَ ٱلمُنْصِفِ، وقاس العبَّاسَةَ بابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَماءِ مُلوكِ زَمَانِهِ، لَاستَنكَفَ لها عَنْ مِثْلِهِ مَع مَوْلًى مِنْ موالي دَوْلتِها، وفي سُلْطَانِ قَوْمِها، وٱسْتَنكَرَهُ وَلَجَّ في تَكْذِيبِهِ. وأَيْنَ قَدْرُ العَبَّاسَةِ وَالرَّشيدِ مِنَ النَّاسِ؟

وَإِنَّما نَكَبَ البَرَامِكَةَ مَا كانَ مِن ٱسْتِبْدَادِهِم على ٱلدَّوْلَةِ، وٱحْتِجَافِهِمْ أَمْوَالَ ٱلجِبايَةِ، حَتَّى كانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ اليَسيرَ مِنَ ٱلْمَالِ، فَلا يَصِلُ إِلَيْهِ، فَغَلَبوه على أَمْرِهِ وَشَارَكوهُ في سُلْطَانِهِ، وَلَم يكُنْ له مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ في أُمور مُلْكِهِ. فَعَظُمَتْ آثارُهُمْ وَبَعُدَ صيتُهُمْ، وعَمَروا مَراتِبَ ٱلدَّوْلَةِ وَخُطَطَها[1] بالرؤَساءِ مِنْ وُلْدِهِمْ .

وقارَن ذلكَ عند مخْدومِيهِمْ نَواشِي الغيرَةِ وَالاسْتِنْكافِ من ٱلْحَجْرِ وٱلأَنَفَةِ، وَكَامِنِ ٱلْحُقودِ ٱلَّتي بَعَثَتْها مِنْهُمْ صَغائِرُ ٱلدَّالَّةِ، وَٱنْتَهَى بِها ٱلإِصْرَارُ على شَأْنِهِمْ إِلى كبائِرِ ٱلْمُخَالَفَةِ كقِصَّتِهِمْ في يَحْيىَ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ ٱلحَسَنِ بنِ الحسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ أَبي طالِبٍ، أَخي مُحَمّدٍ ٱلْمَهْدِيّ ٱلْمُلَقَّبِ بالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخَارِجِ على ٱلْمَنصورِ. وَيَحْيى هٰذا هُوَ الذِي اسْتَنْزَلَهُ الفَضْلُ ابْنُ يَحْيىٰ من بِلَادِ الدَّيْلَمِ على أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ، وَبَذَلَ لَهُمْ فيه أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلى ما ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ، وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ إلى جَعْفَرٍ، وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدارِهِ وإِلى نَظَرِهِ. فَحَبَسَهُ مُدَّةً، ثمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ، والاسْتِبْدادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ، حُرْمًا لِدِماءِ أَهْلِ البَيْتِ بِزَعْمِهِ، ودالَّةً على السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ. وسَأَلَهُ الرَّشيدُ عَنْهُ لما وُشِيَ بِهِ إِليه، فَفَطِنَ، وقَالَ: أَطْلَقْتُهُ؛ فَأَبْدى لَهُ وَجْهَ الاسْتِحْسَانِ، وأَسَرَّها فِي نَفْسِهِ. فَأَوْجَدَ السَّبِيلَ بِذَلِكَ على نَفْسِهِ وقَوْمِهِ، حَتَّى ثُلَّ عَرْشُهُمْ، وأُلْقِيَتْ عَلَيْهِمْ سماؤُهُمْ، وخُسِفَتِ الأَرْضُ بِهِمْ وَبِدارِهِمْ، وذَهَبَتْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلآخِرِينَ أَيَّامُهُمْ. ومَنْ تَأَمَّلَ أَخْبارَهُمْ، واسْتَقْصَى سِيَرَ الدَّوْلَةِ وسِيَرَهُمْ وَجَدَ ذَلِكَ مُحَقَّقَ الأَثَرِ مُمَهَّدَ الأَسْبابِ.

وانْظُرْ ما نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مُفاوَضَةِ الرَّشيدِ عَمّ جَدِّهِ داودَ بْنِ عَلِيّ في شَأْنِ نكْبَتِهِمْ، وما ذَكَرَهُ في بابِ الشُّعَرَاءِ مِنْ كِتَابِ «العِقْدِ» في مُحَاوَرَةِ الأَصْمَعِي[2] للرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيىٰ في سَمَرِهِمْ، تَتَفَهَّمْ أَنَّهُ إِنَّما قَتَلَتْهُمُ الغَيْرَةُ والمُنَافَسَةُ في الاستِبدادِ مِنَ الْخَلِيفَةِ فَمَنْ دونَهُ.

(١) الخُطط : مفردها خطة بضم الخاء ، وهي بمعنى الأمر .

(٢) الأصمعي هو : عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. وُلد في البصرة (١٢٢هـ - ٧٤٠ م) ، وتوفى فيها (٢١٦ هـ - ٨٣١ م). انظر ترجمته ، الأعلام (١٦٢/٤).

وَكَذَلِكَ ما تَحَيَّلَ بِهِ أَعْداؤُهُمْ من البِطَانَةِ فيما دَسُّوهُ لِلْمُغَنِّينَ من الشِّعْرِ احْتِيالًا على إِسْماعِهِ لِلْخَلِيفَةِ وتَحْرِيكِ حَفائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ:

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنَا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أَنْفُسَنا مِمَّا نَجِدْ

واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً ... إِنَّما العاجِزُ مَن لا يَسْتَبِدْ[1]

وأَنَّ الرَّشيدَ لما سَمِعَها قَال: «إِي واللَّهِ إِني عاجِزٌ» حَتَّى بَعَثوا بأَمْثالِ هذه كامِنَ غيرَتِهِ، وسَلَّطوا عَلَيْهِمْ بَأْسَ انْتِقامِهِ، نَعوذُ باللَّهِ مِنْ غَلَبَةِ الرِّجالِ وسوء الْحَالِ.

وَأَمَّا ما تُموِّهُ بِهِ الحِكايَةُ مِنْ مُعاقَرَةِ الرَّشيدِ الْخَمْرَ، واقْتِرَانِ سُكْرِهِ بسُكْرِ النَّدْمَانِ، ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]. وأَيْنَ هَذا مِنْ حالِ الرَّشيدِ وقِيامِهِ بما يَجِبُ لِمَنْصِبِ الخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ والعَدالَةِ، وما كانَ عَلَيْهِ من صَحابَةِ العُلَماءِ والأَوْلِياءِ، ومُحاوراتِهِ لِلْفُضَيلِ بْنِ عِياضٍ[2] وابْنِ السَّمَّاكِ والعُمَرِيِّ، ومُكاتَبَتِهِ سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ، وبُكائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ في طَوَافِهِ، وما كانَ عَلَيْهِ مِنَ العبادَةِ والمُحافَظَةِ على أَوْقاتِ الصَّلَوَاتِ وشُهُودِ الصُّبْحِ لأَوَّلِ وَقْتِها!. حكى الطَّبَرِيُّ وغَيْرُهُ أَنَّه كانَ يُصَلِّي في كُلِّ يَوْمٍ مَائَةَ رَكْعَةٍ نافِلَةً، وكانَ يَغْزو عامًا ويَحِجُّ عامًا. ولَقَدْ زَجَرَ ابْنَ أَبِي مَرْيَمَ مُضْحِكَهُ فِي سمرِهِ حين تَعَرَّضَ له بِمِثْلِ ذَلِكَ في الصَّلَاةِ لمَّا سَمعَهُ يَقْرَأُ ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢]، وقال: والله ما أَدري لِمَ؟ فما تَمالَكَ الرَّشيدُ أَنْ ضَحِكَ، ثمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَبًا، وقال: يا بْنَ أَبِي مَرْيَمَ في الصَّلَاةِ أَيضًا؟ إِيَّاكَ إِيَّاكَ والقُرْآنَ والدِّينَ، ولك ما شِئْتَ بَعْدَهُمَا.

وأَيضًا فقد كانَ مِنَ العِلْمِ والسَّذَاجَةِ بِمَكانٍ لِقُرْبِ عَهْدِهِ من سَلَفِهِ المُنْتَحِلينَ لِذَلِكَ، لم يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبي جَعْفَر بَعيدُ زَمَنٍ، إِنَّما خَلَّفَهُ غُلامًا. وقَدْ كانَ أَبو جَعْفَرٍ بِمَكانٍ مِنْ العِلْمِ والدِّين قَبْلَ الخِلَافَةِ وَبَعْدَها. وَهُوَ القائِلُ لِمَالِكٍ حينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ المُوَطَّأ: «يا أَبا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لم يَبْقَ على وَجْهِ الأَرْضِ أَعْلَمُ مِنّي ومِنْكَ، وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتُني الْخِلَافَةُ فَضَعْ أَنْتَ للنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ به، تَجَنَّبْ فيه رُخَصَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَشَدائِدَ ابْنِ عُمَرَ، وَوَسَّطْهُ لِلنَّاسِ تَوْسِطَةً». قال مالِكٌ: «فَواللَّهِ لقد عَلَّمَني التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ». وَلَقَدْ أَدرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبو الرَّشيدِ هذا وهُوَ يَتَوَرَّعُ عن كِسْوَةِ الجَديدِ لِعِيَالِهِ من بيْتِ الْمَالِ. ودَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُباشِرُ

---

(١) البيتان من بحر الرمل، وهما من قصيدة لعمر بن أبي ربيعة.

(٢) هو: الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي: شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث. ولد في سمرقند (١٠٥ هـ - ٧٢٣ م) وتوفي في مكة (١٨٧ هـ - ٨٠٣ م). انظر ترجمته، الأعلام (٥/ ١٥٣).

الخَيَّاطِينَ في إِرْقاعِ الخُلْقانِ من ثِيابِ عِيالِهِ، فَاسْتَنْكَفَ الْمَهْدِيُّ مِن ذَلِكَ، وقالَ: يا أَميرَ المُؤمِنينَ عَليَّ كِسْوةُ العِيالِ عامَنا هذا من عَطائي، فقالَ له : لكَ ذَلِكَ ولم يَصُدَّهُ عنه، ولا سَمِحَ بالإِنْفاقِ مِن أَمْوالِ المُسْلِمينَ. فَكَيْفَ يَليقُ بالرّشيدِ على قُرْبِ العَهْدِ من هذا الخَليفَةِ وأُبُوَّتِهِ، وما رُبِّيَ عَليْهِ مِن أَمْثالِ هذه السّيَرِ في أَهْلِ بَيْتِهِ، والتَّخَلُّقِ بها، أَنْ يُعاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجاهِرَ بِها؟. وَقَدْ كانَتْ حالَةُ الأَشْرافِ مِنَ العَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلومَةً، وَلَمْ يَكُنِ الْكَرَمُ شَجَرَتَهُمْ، وَكانَ شُرْبُها مَذَمَّةً عِنْدَ الكثيرِ منهم، والرَّشيدُ وآباؤُهُ كانوا على ثَبَجٍ[1] مِن اجْتِنابِ الْمَذْمُوماتِ في دِينِهِمْ ودُنْياهُمْ، والتَّخَلُّقِ بالمَحامِدِ وأَوْصافِ الكمالِ ونَزَعاتِ العَرَبِ.

وانْظُرْ ما نَقَلَهُ الطَّبَرِيُّ والمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جِبْرِيلَ بْنِ بَخْتيشوعَ الطَّبيبِ حين أُحْضِرَ له السَّمَكُ في مائِدَتِهِ فَحَماه عنه؛ ثمَّ أَمَرَ صاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلى مَنْزِلِهِ؛ وفَطِنَ الرَّشيدُ وارْتَابَ به، ودَسَّ خَادِمَهُ حتى عايَنَهُ يَتناوَلُهُ؛ فَأَعَدَّ ابْنُ بَخْتيشوعَ لِلاعْتِذارِ ثَلاثَ قِطَعٍ مِنَ السَّمَكِ في ثَلاثَةِ أَقْداحٍ: خَلَطَ إِحْداهما باللَّحْمِ المُعالَجِ بالتَّوابِلِ والبُقولِ والبَوارِدِ والحَلوى؛ وَصَبَّ عَلى الثّانِيَةِ ماءً مُثَلَّجًا؛ وعَلى الثّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا. وقال في الأَوَّلِ والثّاني هَذا طعامُ أَميرِ المُؤمِنينَ، إِنْ خَلَطَ السَّمَكَ بغَيْرِهِ أَوْ لم يَخْلِطْهُ؛ وقالَ في الثّالِثِ: هَذا طَعامُ ابْنِ بَخْتيشوعَ، ودَفَعَها إِلى صاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتى إِذا انْتَبَهَ الرَّشيدُ وَأَحْضَرَهُ للتَّوْبيخِ، أَحْضَرَ الثّلاثَةَ الأَقْداحِ، فَوَجَدَ صاحِبَ الخَمْرِ قَدِ اخْتَلَطَ وَأَمَّاعَ وَتَفَتَّتَ، وَوَجَدَ الآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحتُهُما. فكانت له في ذَلِكَ مَعْذِرَةٌ. وَتَبَيَّنَ مِنْ ذلك أَنَّ حالَ الرّشيدِ في اجْتِنابِ الْخَمر كانَتْ مَعْروفَةً عِندَ بِطانَتِهِ وَأَهْلِ مائِدَتِهِ. وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ أَبِي نُواسٍ لما بَلَغَهُ من انْهِماكِهِ في المُعاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وأَقْلَعَ.

وَإِنّمَا كانَ الرّشيدُ يَشْرَبُ نَبيذَ التَّمْرِ عَلى مَذْهَبِ أَهْلِ العِراقِ[2]. وَفَتاويهم فيها مَعْروفَةٌ؛ وَأَمَّا الْخَمْرُ الصِّرْفُ فلا سبيل إِلى اتّهامِهِ بِهِ، ولا تَقْليدِ الأَخْبارِ الواهِيَةِ فيها. فلم يَكُنِ الرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحرَّمًا مِنْ أَكْبَرِ الكَبائِرِ عِندَ أَهْلِ المِلَّةِ. وَلَقَدْ كانَ أولئكَ القَوْمُ كلهم بِمَنْجاةٍ من ارْتِكابِ السَّرَفِ والتَّرَفِ في مَلابِسِهِمْ وزينَتِهِمْ وسائِرِ مُتَناوَلاتِهِمْ، لِما كانوا عَلَيْهِ منْ خُشونَةِ البداوَةِ وسَذاجَةِ الدّينِ الَّتي لم يُفارِقُوها بعد. فما ظَنُّكَ بِمَن يَخْرُجُ عَن الإِباحَةِ إِلى الحَظْر، وعَنِ الحِلِّيَّةِ إِلى الحُرْمَةِ؟.

---

(١) الثبج من كل شيء: معظمه.

(٢) المقصود في ذلك مذهب أبي حنيفة .

ولقد اتَّفَقَ المُؤَرِّخُونَ: الطَّبَرِيُّ والْمَسْعودِيُّ وغَيْرُهُمْ على أَنَّ جَمِيع مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وبَنِي العَبَّاسِ إِنَّما كَانُوا يَرْكَبُونَ بالحِلْيَةِ الخَفيفَةِ مِنَ الفِضَّةِ في الْمَنَاطِقِ والسُّيوفِ واللُّجُم والسُّرُوجِ، وأَنَّ أَوَّلَ خَليفَةٍ أَحْدَثَ الرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هو المُعْتَزُّ بْنُ المُتَوَكِّل ثامِنُ الخُلَفاءِ بعدَ الرَّشيدِ. وَهَكَذَا كان حَالُهُمْ أَيْضًا في مَلابِسِهِمْ فما ظَنُّكَ بمشارِبِهِمْ؟ وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بأَتَمَّ مِنْ هَذا إذا فهِمْتَ طبيعةَ الدَّوْلَةِ في أَوَّلِها منَ البداوَةِ والغَضاضَةِ[1] كما نَشْرَحُ في مَسائِلِ الكتابِ الأَوَّلِ إن شَاءَ اللَّهُ. واللَّهُ الهادِي إلى الصَّوابِ.

وَيُناسِبُ هَذا أَوْ قَريبٌ مِنه ما يَنْقُلونَهُ كافَّةً عَنْ يَحْيىٰ بْنِ أَكْثَمَ قاضي المَأْمونِ وصَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ كانَ يُعاقِرُ الخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ ليلةً مع شَرْبِهِ، فَدُفِنَ فِي الرَّيْحَانِ حَتى أَفاقَ؛ وَيُنْشِدونَ عَلى لِسَانِهِ:

يـا سـيّـدي وأَمـيـرَ الـنَّـاسِ كُـلّـهـمُ قَدْ جَارَ في حُكْمِهِ مَنْ كانَ يَسْقيني
إِنِّي غَـفَـلْـتُ عَـنِ الـسَّـاقِـي فـصَـيَّـرَنـي كـمـا تَـرَانـي سَـلـيـب الـعـقْـل والـدّيـن

وحالُ ابْنِ أَكْثَمَ والْمَأْمونِ في ذلك منْ حالِ الرَّشيدِ، وشرابُهُمْ إِنَّما كانَ النَّبيذَ؛ ولم يكنْ مَحْظورًا عِنْدَهُمْ. وأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ من شأْنِهِمْ؛ وَصَحابَتُهُ لِلْمَأْمونِ إِنَّما كانَتْ خُلَّةً في الدّين. ولقد ثَبَتَ أَنَّهُ كانَ يَنامُ مَعهُ في البيتِ. ونُقِلَ من فَضائِلِ المأْمونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذاتَ لَيْلَةٍ فَقامَ يَتَحَسَّسُ وَيَتَلَمَّسُ الإِناءَ مَخَافَةَ أَنْ يوقِظَ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ. وَثَبَتَ أَنَّهُما كانا يُصَلِّيانِ الصُّبْحَ جَمَاعَةً. فَأَيْنَ هذا من المُعَاقَرةِ؟.

وأَيْضًا فَإِنَّ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ كانَ من عِلْيَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ. وقد أَثْنى عَلَيْهِ الإِمامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وإِسماعيلُ القاضي، وَخَرَّجَ عنه التِّرْمِذِيُّ كتابَهُ الْجَامِعَ، وذكر المُزْنيُّ الحافِظُ أَنَّ البُخَارِيَّ روى عنه في غيرِ الجامِعِ، فالقَدْحُ فيه قَدْحٌ في جَمِيعِهِمْ.

وكذلك ما يَثْبِجُهُ المُجَّان بالْمَيْلِ إلى الغِلْمانِ بُهْتانًا على اللَّهِ وفِرْيَة على العلماءِ؛ وَيَسْتَنِدونَ في ذلك إلى أَخْبارِ القُصَّاصِ الواهِيَةِ التي لَعلَّها من افْتِرَاءِ أَعْدائِهِ؛ فَإِنَّهُ كانَ مَحْسودًا في كمالِهِ وخُلَّتِهِ لِلسُّلطانِ؛ وكان مَقَامُهُ من العِلْمِ والدّينِ مُنَزَّهًا عن مِثْلِ ذَلِكَ. ولَقَدْ ذُكِرَ لابْنِ حَنْبَلٍ ما يَرْميهِ به النّاسُ؛ فقال: «سُبْحانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَنْ يقولُ هَذا؟» وَأَنْكَرَ ذلك إِنْكارًا شَديدًا. وأَثْنى عَلَيْهِ إسماعيلُ القاضي؛ فقيلَ له: ما كانَ يُقالُ فيه؛ فَقالَ: مَعاذَ اللَّهِ أَنْ

(١) الغضاضة : النضارة ، الطراوة .

تَزُولَ عَدالَةُ مِثْلِهِ بِتَكَذُّبِ باغٍ وحاسِدٍ؛ وقالَ أَيضًا: يَحْيَىٰ بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأُ إِلى اللَّهِ من أَن يَكونَ فيه شَيْءٌ مِمَّا كانَ يُرْمى به مِنْ أَمْرِ الغِلْمانِ؛ ولقد كُنْتُ أَقِفُ على سَرائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَديدَ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ؛ لَكِنَّهُ كانَتْ فيه دُعابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فرُمِيَ بِهِ. وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ في الثِّقَاتِ، وَقالَ: لا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عنه لأَنَّ أَكْثَرَهَا لا يَصِحُّ عنه.

ومِنْ أَمْثَالِ هذه الحكاياتِ ما نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صاحِبُ العِقْدِ من حديث الزّنبيل، في سَبَبِ إِصْهارِ المأْمونِ إِلى الحَسَنِ بن سَهْلٍ في بنتِهِ بوران، وأَنَّهُ عَثَرَ في بَعْضِ الليالي في تَطْوافِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ في زِنبيلٍ[1] مُدَلًّى مِنْ بَعْضِ السّطوحِ بِمَعالِقَ وَجُدُلٍ مُغَارَةِ الفَتْلِ من الْحَريرِ؛ فاقتعده وتَناوَلَ الْمَعَالِقَ فاهْتَرَّتْ وذَهَبَ صُعُدًا إِلى مَجْلِسٍ شأْنُهُ كذا. وَوَصَفَ من زِينَةِ فَرْشِهِ وتَنْضيدِ أَبْنِيَتِهِ وجَمالِ رُؤْيَتِهِ ما يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ، وأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ له مِنْ خَلَلِ السُّتورِ في ذلك الْمَجلِسِ رائِقَةَ الجَمالِ فَتَّانَةَ المحاسِنِ، فَحَيَّتْهُ وَدَعَتْهُ إِلى المُنَادَمَةِ، فلم يَزَلْ يُعاقِرُها الْخَمْرَ حَتَّى الصّباحِ، ورجع إِلى أَصْحَابِهِ بِمَكانِهِمْ مِن انْتِظارِهِ وقد شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ على الإِصْهارِ إِلى أَبيها. وَأَيْنَ هذا كلُّهُ مِنْ حالِ الْمَأْمونِ الْمَعْرُوفَةِ في دينِهِ وعِلْمِهِ واقْتِفَائِهِ سُنَنَ الخُلَفَاءِ الرّاشدينَ مِنْ آبائِهِ؟، وأَخْذِهِ بِسِيَرِ الخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ أَرْكانِ الْمِلَّةِ ومُناظَرَتِهِ لِلْعُلَماءِ وحِفْظِهِ لِحُدودِ اللَّهِ تَعالى في صَلَوَاتِهِ وأَحْكامِهِ؟، فَكَيْفَ تَصِحُّ عنه أَحْوالُ الفُسَّاقِ المُسْتَهْتِرين في التَّطْوافِ باللَّيلِ وطُروقِ الْمَنَازِلِ وَغِشْيانِ السَّمَرِ؟، سَبيلَ عُشَّاقِ الأَعْرابِ. وأَيْنَ ذلك من مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحَسَنِ بن سَهْلٍ وشَرَفِهَا وما كانَ بدار أَبيها مِنَ الصَّوْنِ والعَفافِ؟.

وأَمْثالُ هذهِ الحِكاياتِ كثيرَةٌ، وفي كُتُبِ المُؤَرِّخِينَ مَغْروفَةٌ؛ وإِنَّما يَبْعَثُ على وَضْعِهَا وَالْحَديثِ بها الانْهِمَاكُ فِي اللذَّاتِ المُحَرَّمَةِ، وهَتْكِ قِناعِ المُخدَّراتِ، ويَتَعَلَّلونَ بالتَّأَسّي بالْقَوْمِ فيما يَأْتونَهُ مِنْ طاعَةِ لَذَّاتِهِمْ، فلذلك تَراهُمْ كثيرًا ما يَلْهَجونَ بَأشباهِ هذه الأَخبار ويَنْقرونَ عنها عند تَصَفُّحِهِمْ لأَوراقِ الدّواوينِ. ولَوِ ائْتَسَوْا بهم في غَيْرِ هذا مِنْ أَحْوالِهِمْ وصِفاتِ الكمالِ اللَّائِقَةِ بهم الْمَشْهُورَةِ عنهم لكانَ خَيرًا لهم لو كانوا يَعْلَمون.

ولقد عَذَلْتُ يومًا بعض الأُمَراءِ مِنْ أَبْناءِ المُلوكِ فِي كَلَفِهِ بِتَعَلُّمِ الغِنَاءِ وَولوعِهِ بالأَوْتارِ، وقُلْتُ له: لَيْسَ هذا مِنْ شَأْنِكَ ولا يَليقُ بمنْصِبِكَ؛ فقال لي: أَفَلا ترى إِلى إِبْرَاهيمَ بن الْمَهْدِيّ

[1] الزنبيل : القفة أو الوعاء .

كَيْفَ كانَ إمامَ هذه الصّناعَةِ ورئيسَ المُغَنّينَ في زَمانِهِ؟ فَقُلتُ له: يا سُبْحانَ اللَّهِ! وهَلَّا تَأَسَّيْتَ بأَبيهِ أَوْ بأَخِيهِ! أَوَ مَا رَأَيْتَ كيف قَعَدَ ذلك بإبراهيمَ عن مناصِبِهِمْ؟! فَصَمَّ عَنْ عَذْلي وأَعْرَضَ. واللَّهُ يَهْدِي مَنْ يشاء.

ومِن الأَخْبَارِ الواهِيَةِ ما يَذْهَبُ إِلَيْهِ الكثيرُ مِنَ المُؤَرِّخِين والأَثْباتِ فِي العُبَيْدِيِّينَ[١] خُلَفاءِ الشّيعَةِ بِالقَيْرَوانِ والقاهِرَةِ مِنْ نَفْيِهِمْ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيهِم-، والطَّعْنِ فِي نَسَبِهِم إِلى إِسْماعيلَ الإِمام ابن جَعْفَرٍ الصَّادِقِ. يَعْتَمِدونَ فِي ذلك على أَحاديثَ لُفِّقَتْ لِلْمُسْتَضْعَفينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي العَبَّاسِ تَزَلُّفًا إِلَيهم بالقَدْحِ فيمَنْ ناصَبَهُمْ، وتَفَنُّنًا فِي الشَّماتِ بعَدُوِّهِمْ؛ حَسْبما نَذكُرُ بَعْضَ هذه الأَحاديثِ في أَخْبارِهِمْ، ويَغْفُلونَ عَنْ التَّفَطُّنِ لِشَواهِدِ الواقِعاتِ وَأَدِلَّةِ الأَحْوالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خلافَ ذلك مِنْ تَكْذِيبِ دَعْواهُمْ والرَّدِّ عَلَيْهِمْ.

فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقونَ في حَديثِهِم عنْ مَبْدَأ دَوْلَةِ الشّيعَةِ أَنَّ أَبا عَبْدِ اللَّهِ المُحتَسِبَ لَمَّا دَعا بِكُتامَةَ[٢] لِلرِّضى منْ آلِ مُحَمَّدٍ، واشْتَهَرَ خَبَرُهُ وعُلِمَ تَحْويمُهُ على عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وابْنِهِ أَبي القاسِم، خَشِيا على أَنْفُسِهُما فَهَرَبا من الْمَشْرِقِ مَحَلِّ الْخِلَافَةِ واجْتازا بِمصْرَ، وأَنَّهُما خَرَجا مِنَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ في زِيِّ التُّجَّارِ، وَنُمِيَ خَبَرُهما إِلى عيسى النَّوْشَرِيِّ عامِلِ مِصْرَ وَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ، فَسَرَّح في طَلَبِهِما الْخَيَّالَةَ؛ حَتَّى إِذا أَدْرَكا خَفِيَ حالُهُما على تابِعِهِما بما لَبَّسوا به مِنَ الشّارَةِ والزِّيِّ؛ فَأَفْلَتوا إِلى الْمَغْرِبِ، وأَنَّ المُعْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلى الأَغالِبَةِ أُمراءِ إِفْرِيقِيَةِ بالْقَيْرَوانِ، وبَني مِدْرارَ أُمراءِ سِجِلْماسَةَ بأَخذ الآفاقِ عَلَيْهما وإِذْكاءِ العُيونِ في طَلَبِهِما، فَعَثَرَ إِلْيَسَعُ صاحِبُ سِجِلْماسَةَ مِنْ آل مِدْرارَ على خَفِيِّ مَكانِهما بِبَلَدِهِ، وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضاةً لِلْخَلِيفَةِ.

هذا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشّيعَةُ على الأَغالِبَةِ بالقَيْرَوانِ. ثمَّ كانَ بعد ذلك ما كانَ مِنْ ظُهورِ دَعْوتِهِمْ بالْمَغْرِبِ وَإِفْرِيقِيَةَ، ثم بالْيَمَنِ، ثم بالإِسْكَنْدَرِيَّةِ، ثم بِمَصْرَ والشَّامِ والحِجازِ. وقاسموا بني العبَّاسِ في مَمَالِكِ الإِسْلامِ شَقَّ الإِبْلِمَةِ، وكادوا يَلِجونَ عَلَيْهِم مَواطِنَهُمْ ويُزايلونَ مِنْ أَمْرِهِمْ. ولقد أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدَادَ وعِراقِها الأَميرُ البَساسيرِيُّ مِنْ مَوالي الدَّيْلَمِ المُتَغَلِّبينَ على خُلَفاءِ بَنِي العَبَّاسِ في مُغاضَبَةٍ جرت بينه وبين أُمراءِ العجم، وخَطَبَ لَهُمْ على مَنابِرِها حَوْلًا كامِلًا. وما زالَ بَنو العَبَّاسِ يَغَصُّونَ بِمَكانِهِمْ ودَوْلَتِهِمْ، ومُلوكُ بني أُمَيَّةَ وَرَاءَ البَحْر يُنادُونَ بالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ. وكَيْفَ يَقَعُ هذا كُلُّهُ لِدَعِيٍّ في النَّسَبِ يَكْذِبُ في انْتِحال الأَمْرِ؟.

---

(١) العبيديّون: هم الفاطميون، ينسبون إلى عبيد الله المهدي الفاطمي.

(٢) كتامة: قبائل من البربر ناصرت الدعوة الفاطمية.

واعْتَبَر حال القَرْمَطِيّ إِذْ كان دَعِيًّا في انْتِسابِهِ كَيْفَ تَلاشَتْ دَعْوَتُهُ وتَفَرَّقَتْ أَتْباعُهُ وظُهِرَ سَريعًا على خُبْثِهِم وَمَكْرِهِمْ فَساءَتْ عاقِبَتُهُمْ، وذاقوا وَبالَ أَمْرِهِم. ولَوْ كانَ أَمْرُ العُبَيْدِيِّينَ كذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ:

ومهما تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وإِنْ خالها تَخْفى على النَّاسِ تُعْلَمِ(١)

فقد اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مائَتَيْنِ وسَبْعينَ سَنَةً، وَمَلَكوا مَقامَ إِبْرَاهيمَ عَلَيهِ السَّلامُ وَمُصَلَّاهُ، وَمَوْطِنَ الرَّسول ﷺ ومَدْفَنَهُ، وموقِفَ الحَجيجِ ومَهْبِطَ الْمَلائِكَةِ، ثم انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ، وشيعتُهُمْ في ذلك كُلِّهِ على أَتَمِّ ما كانوا عليه من الطَّاعَةِ لَهم والحُبّ فيهم واعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الإِمامِ إِسماعيلَ بنِ جَعْفَرٍ الصّادِقِ. ولَقَد خَرَجوا مرارًا بَعْدَ ذَهابِ الدَّوْلَةِ ودُروسِ أَثَرِهَا، داعينَ إِلى بِدْعَتِهِمْ هاتِفينَ بَأَسماءِ صِبْيَانٍ من أَعقابهم، يَزْعمُونَ اسْتِحْقاقَهم لِلْخِلافَةِ، ويَذْهَبونَ إِلى تَعْيينِهِمْ بالْوَصِيَّةِ مِمَّن سَلَفَ قَبْلَهُمْ مِنَ الأَئِمة. ولو ارْتابوا في نَسَبِهِم لما رَكِبوا أَعناقَ الأَخْطارِ في الانْتِصارِ لهم، فَصَاحِبُ البِدْعَةِ لا يُلَبِّسُ في أَمْرِهِ ولا يُشَبِّهُ في بِدْعَتِهِ وَلا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ فيما يَنْتَحِلُهُ.

والْعَجَبُ مِنَ القاضي أَبي بكْر الباقِلانيّ شَيخِ النُّظَّارِ مِنَ المُتكَلِّمينَ يَجْنَحُ إِلى هَذِهِ الْمَقالَةِ الْمَرْجوحَةِ؛ ويَرَى الرَّأْيَ الضَّعيفَ. فإن كان ذلك لما كانوا عَلَيهِ مِنَ الإِلْحادِ في الدِّينِ والتَّعَمُّقِ في الرّافِضِيَّةِ، فليسَ ذلك بِدافِعٍ في صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ، ولَيس إِثْباتُ مُنْتَسَبِهِمْ بالَّذِي يُغْني عَنْهُمْ من الله شَيئًا فِي كُفْرِهِمْ، فَقَدْ قالَ تعالى لِنوح – عَلَيهِ السَّلامُ– فِي شَأْنِ ابْنِهِ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٦] . وقالَ ﷺ لفاطِمَةَ يَعِظُها: «**يا فَاطِمَةُ اعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**»(٢).

ومتى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوِ اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيهِ أَنْ يَصدعَ بِهِ؛ ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤] والقَوْمُ كانوا في مَجالٍ لِظُنونِ الدُّوَلِ بِهِم وَتَحْتَ رِقْبَةٍ من الطُّغاةِ لتَوَفُّرِ شيعَتِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ في القاصيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ، وَتَكرُّرِ خُروجِهِمْ مَرَّةً بعد أُخْرى، فَلاذَتْ رِجالاتُهُمْ بِالاحْنِفاءِ ولم يَكادوا يُعْرَفونَ، كما قيل:

لو تَسْأَلِ الأَيَّامَ ما اسْمِيَ ما دَرَتْ وَأَيْنَ مَكاني ما عَرَفْنَ مَكانِيَا(٣)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ، وهو من بحر الطويل .

(٢) مسلم في الإيمان برقم (٢٠٦).

(٣) البيت من بحر الطويل، وهو لمالك بن الريب.

حتَّى لَقَدْ سُمِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ إسْماعيلَ جَدُّ عُبَيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بالْمَكْتومِ؛ سَمَّتْهُ بِذَلِكَ شيعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقوا عَلَيْهِ من إخْفائِهِ حَذَرًا من المُتَغَلِّبينَ عَلَيْهِمْ. فَتَوَسَّلَ شيعَةُ بَني العَبَّاسِ بذلك عند ظُهورِهِمْ إلى الطَّعْنِ في نَسَبِهِمْ. وازْدَلفوا بهذا الرَّأْيِ القائلِ لِلْمُسْتَضْعَفينَ من خُلفائِهِمْ، وَأُعْجِبَ به أَوْلِياؤُهُمْ وَأُمَراءُ دَوْلَتِهِمْ المُتَوَلُّونَ لِحُروبِهِمْ مع الأَعْداءِ يَدْفَعونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطانِهِمْ مَعَرَّةَ العَجْزِ عن المُقاوَمَةِ والمُدافَعَةِ لِمَن غَلَبَهُمْ على الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجازِ من البَرْبَرِ الكُتاميِّينَ شيعَةِ العُبَيْدِيينَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ؛ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ القُضاةُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عن هذا النَّسَبِ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ من أَعْلامِ النَّاسِ جَماعَةٌ منهم الشَّريفُ الرَّضِيُّ وَأَخوهُ المُرْتَضى وابْنُ البَطْحاويُّ، ومن العُلَماءِ أَبو حامِدٍ الأَسْفَرايينيّ والقُدوريّ والصَّيْمَريّ وَابْنُ الأَكْفانيّ وَالأَبْيَوَرْدِيّ وأَبو عَبْدِ اللَّهِ بنُ النُّعْمانِ فَقيهُ الشّيعَةِ ، وَغَيْرُهُمْ من أَعْلامِ الأُمَّةِ بِبَغْدادَ في يَوْمٍ مَشْهودٍ، وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعمائَةٍ فِي أَيَّامِ القادِرِ؛ وَكانَتْ شَهادَتُهُمْ في ذلكَ على السَّماعِ لما اشتَهَرَ وَعُرِفَ بَين النَّاسِ بِبَغْدادَ، وَغالِبُها شيعَةُ بَني العَبَّاسِ الطّاعِنونَ فِي هَذَا النَّسَبِ؛ فَنَقَلَهُ الإِخْبارِيُّونَ كما سَمِعوهُ،وَرَوَوْهُ حَسْبَما وَعَوْهُ؛ وَالْحَقُّ من وَرَائِهِ.

وفي كتاب المُعْتَضِدِ في شَأْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ إلى ابنِ الأَغْلَبِ بِالْقَيْرَوانِ وابنِ مِدْرارَ بِسِجِلْماسَةَ أَصْدَقُ شاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَليلٍ على صِحَّةِ نَسَبِهِمْ. فالْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ بِنَسَبِ أَهْلِ البَيْتِ من كُلِّ أَحَدٍ. والدَّوْلَةُ والسُّلْطانُ سوقٌ لِلْعالَمِ تُجْلَبُ إِلَيهِ بَضائعُ العُلومِ وَالصَّنائِعِ، وَتُلْتَمَسُ فيه ضَوالُّ الحِكَمِ، وَتُحْدى إِلَيْهِ رَكائِبُ الرِّواياتِ وَالأَخْبارِ، وَما نَفَقَ فيها نَفَقَ عِنْدَ الكافَّةِ. فَإِنْ تَنَزَّهَتِ الدَّوْلَةُ عن التَّعَسُّفِ وَالْمَيْلِ والأَفنِ[1] والسَّفْسَفَةِ وَسَلَكَتِ النَّهْجَ الأَمَمَ ولم تَجُرْ عن قَصْدِ السَّبيلِ نَفَقَ في سوقِها الإِبْريزُ الخالِصُ واللُّجَيْنُ المُصَفَّى؛ وَإِنْ ذَهَبَتْ مع الأَغراضِ والحُقودِ، وَماجَتْ بِسَماسِرَةِ البَغْيِ والباطِلِ، نَفَقَ البَهْرَجُ والزّائِفُ. والنّاقِدُ البَصيرُ قِسْطاسُ نَظَرِهِ وَميزانُ بَحْثِهِ وَمُلْتَمَسِهِ.

ومثلُ هذا وَأَبْعَدُ منه كثيرًا ما يَتَناجَى به الطّاعِنونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بنِ إدريسَ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ابنِ حَسَنِ بنِ الحَسَنِ بالتَّظَنِّي في الْحَمْلِ الْمُخَلَّفِ عن إِدْرِيسَ الأَكْبَرِ أَنَّه لراشِد مَوْلَاهُمْ فَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ؛ ما أَجْهَلَهُمْ! أَما يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الأَكْبَرَ كانَ أَصْهَارُهُ فِي البَرْبَرِ وَأَنَّهُ منذ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إلى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَريقٌ في البَدْوِ؟ وَأَنَّ حالَ البَادِيَةِ في مِثْلِ ذلك

[1] الأفن : ضعيف الرأي.

غَيْرُ خافِيَةٍ؟ إِذْ لا مَكامِنَ لهم يَتَأَتَّى فيها الرَّيْبُ، وأحْوالُ حُرَمِهِمْ أَجْمَعِينَ بِمَرْأَى من جاراتِهِنَّ ومَسْمَع مِنْ جِيرانِهِنَّ لِتَلاصُقِ الجُدْرانِ وتَطَامُنِ[1] البُنْيانِ وعَدَمِ الفَواصِلِ بين المساكينِ! وقد كانَ راشِدٌ يتولّى خِدْمَةَ الحُرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بعد مَوْلاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيائِهِمْ وشيعَتِهِمْ وَمُراقَبَةٍ مِنْ كافَّتِهِمْ. وَقَدِ اتَّفَقَ برابِرَةُ الْمَغْرِبِ الأَقْصى عامَّةً على بَيْعَةِ إِدْرِيسَ الأَصْغَرِ مِنْ بَعدِ أَبيهِ، وآتَوْهُ طاعَتَهُمْ عن رِضًا وَإِصْفاقٍ وبَايَعوهُ على الْمَوْتِ الأَحْمَرِ وَخاضوا دونَه بِحارَ المَنايا في حُروبِهِ وغَزَواتِهِ. وَلَوْ حَدَّثوا أَنْفُسَهُمْ بِمِثل هذه الرِّيبَةِ، أَوْ قُرِعَتْ أَسْماعُهُمْ، ولو من عَدُوٍّ كاشِحٍ أَوْ مُنافِقٍ مُرْتابٍ، لَتَخَلَّفَ عَن ذَلِكَ ولو بَعْضُهُمْ. كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّما صَدَرَتْ هَذِهِ الكَلِماتُ مِن بَني العَبَّاسِ أَقْتالِهِمْ[2] ومِن بَني الأَغْلَبِ عُمَّالِهِمْ، كانوا بِإِفريقِيَّةَ وَوُلاتِهِمْ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الأَكْبَرُ إِلى الْمَغْرِبِ مِن وَقْعَةِ بَلْخَ، أَوْعَزَ الهادي إِلى الأَغالِبَةِ أَنْ يَقْعُدوا لَهُ بالْمَراصِدِ وَيُذْكوا عَلَيْهِ العُيونَ، فَلَمْ يَظْفَروا بِهِ، وَخَلَصَ إِلى الْمَغْرِبِ، فتمّ أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوتُهُ، وَظَهَرَ الرّشيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ على ما كانَ مِنْ واضِحِ مَوْلَاهُمْ وَعامِلِهِمْ على الإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِن دَسيسَةِ التَّشَيُّعِ لِلْعَلَوِيَّةِ وَإِدْهانِهِ في نَجاةِ إِدْريسَ إِلى الْمَغْرِبِ. فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّماخَ مِن مَوالي المَهْدِيِّ أَبيهِ لِلتَّحَيُّلِ عَلَى قَتْلِ إِدْرِيسَ، فَأَظْهَرَ اللَّحاقَ بِهِ وَالبَرَاءَةَ مِن بَني مَهْلَكِهِ مِن بَنِي العَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَواقِعِ، لما رَجَوْهُ مِن قَطْعِ أَسْبابِ الدّعْوَةِ العَلَوِيَّةِ بالْمَغْرِبِ وَاقْتِلاعِ جُرْثومَتِهَا. وَلَمَّا ظَهَرَتْ، وَدَوْلَتُهُمْ بِإِدْرِيسَ بنِ إِدْريسَ قَد تَجدَّدَتْ، فَكانَ ذَلِكَ عَلَيْهِم أَنْكى مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ، وَكانَ الفَشَلُ وَالْهَرَمُ قَد نَزَلَا بِدَوْلَةِ العَرَبِ عَن أَنْ يَسْموا إِلى القاصِيَة. فَلَمْ يَكنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشيدِ على إِدْريس الأَكْبَرِ بِمَكانِهِ مِن قاصيَةِ الْمَغْرِبِ، وَاسْتِمالِ البَرْبَرِ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحَيُّلُ فِي إِهْلَاكِهِ بالسُّمُومِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ فَزِعوا إِلى أَوْليائِهِمْ مِن الأَغالِبَةِ بِإفريقِيَة في سَدِّ تِلْكَ الفُرْجَةِ مِن ناحِيَتِهِمْ، وَحَسْمِ الدَّاءِ الْمُتَوَقَّعِ بالدَّوْلَةِ مِن قِبَلِهِم، وَاقْتِلاعِ تِلْكَ العُروقِ قَبْلَ أَنْ تُشْبَحَ مِنْهُمْ، يُخاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمونُ، وَمَنْ بَعْدَهُ مِن خُلَفائِهِمْ. فَكانَ الأَغالِبَةُ عَنْ بَرابِرَةِ الْمَغْرِبِ الأَقْصى أَعجَزَ، وَلِمِثْلِهَا مِن الزَّبونِ[3] عَلى مُلوكِهِمْ أَحْوَجَ، لما طَرَقَ الخِلَافَةَ مِن انْتِزَاءِ[4] مَمالِكِ العَجَمِ عَلى سُدَّتِهَا، وَامْتِطائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغَلُّبِ عَلَيْها، وَتَصْريفِهِمْ أَحْكامَهَا طَوْعَ أَغْراضِهِمْ فِي رِجالِها وَجِبايَتِها وَأَهْلِ خِطَطِها، وَسائِرِ نَقْضِها وَإِبْرامِها كما قال شاعِرُهُم:

خَلِيفَةٌ فِي قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُغا

(١) تطامنت واطمأنت : انخفضت .

(٢) أقتال : جمع قتل وهو العدو المقابل .

(٣) الزَّبون : المُشْتري من تاجِر . وهي كلمة مولدة .

(٤) انتزاء : بمعنى الوثوب من نزا ينزو الحيوان .

يَقولُ ما قالا لَهُ كما تَقولُ البَبَّغا

فَخَشِيَ هَؤُلاءِ الأُمَراءُ الأَغالِبَةُ بَوَادِر السِّعاياتِ، وَتَلوا بالْمَعاذِيرِ فَطَوْرًا بِاحْتِقَارِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ، وَطَوْرًا بِالإِرْهَابِ بِشَأْنِ إِدْرِيس الخارجِ بِهِ وَمَن قامَ مَقَامَهُ مِن أَعْقابِهِ يُخاطِبونَهمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدودَ التُّخومِ مِن عَمَلِهِ، وَيُنْفِذونَ سِكَّتَهُ فِي تُحَفِهِم وَهَدايَاهُمْ وَمُرتَفِعِ جِباياتِهِمْ، تَعْرِيضًا بِاسْتِفْحالِهِ وَتَهْوِيلًا باشْتِدادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيمًا لِما دُفِعوا إِلَيْهِ مِن مُطالَبَتِهِ وَمِراسِهِ، وَتَهديدًا بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِئُوا إِلَيْهِ؛ وَطَوْرًا يَطْعَنونَ في نَسَبِ إدريسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطَّعْنِ الكاذِبِ، تَخفيضًا لِشَأْنِهِ لا يُبالونَ بِصِدْقِهِ مِن كَذِبِهِ، لِبُعْدِ الْمَسافَةِ، وَأَفَنِ عُقولِ مَن خَلَفَ مِن صِبْيَةِ بَنِي العَبَّاس وَمَماليكِهِمْ العَجَم في القَبولِ مِن كُلِّ فائِلٍ وَالسَّمْعِ لِكُلِّ ناعِقٍ. وَلَمْ يَزَلْ هَذا دَأْبَهمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الأَغالِبَةِ؛ فَقَرَعَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ الشَّنْعاءُ أَسْماعَ الغَوْغاءِ، وَصَرَّ عَلَيْها بَعْضُ الطّاعِنينَ أُذُنَهُ، واعتَدَّها ذَريعَةً إلى النَّيْلِ مِن خَلَفِهم عند المُنافَسَةِ. وَمَا لَهُمْ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ والعُدولَ عن مَقَاصِدِ الشَّريعَةِ؛ فَلَا تَعارُضَ فيها بين الْمَقْطوعِ والْمَظنونِ. وَإِدْرِيسُ وُلِدَ على فِراشِ أَبيه، وَالْوَلَدُ لِلْفِراشِ.

على أَنَّ تَنْزِيهَ أَهْلِ البَيْتِ عن مثل هذا من عَقائِدِ أَهْلِ الإيمانِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَد أَذْهَبَ عَنهم الرِّجْس وطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا. فَفِراشُ إِدْرِيسَ طاهِرٌ من الدَّنَسِ ومُنَزَّهٌ عن الرِّجْسِ بِحُكْمِ القُرآنِ. ومَن اعْتَقَدَ خِلافَ هذا فقد باءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ الكُفْرَ من بابِهِ.

وإِنّما أَطْنَبْتُ في هذا الرَّدِّ سَدًّا لأَبْوَابِ الرَّيْبِ ودَفْعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ، لما سَمِعَتْهُ أُذُنايَ من قائِلِهِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِمْ، القادِحِ في نَسَبِهِم بِفِرْيَتِهِ، ويَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عن بعض مُؤَرِّخِي الْمَغربِ مِمَّن انْحَرَفَ عن أَهْلِ البَيْتِ، وارْتابَ في الإيمانِ بِسَلَفِهِم. وإِلَّا فالْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عن ذلك مَعْصومٌ منه؛ ونَفْيُ العَيْبِ حيث يَسْتَحِيلُ العَيْبُ عَيْبٌ. لَكِني جادَلْتُ عَنْهُمْ في الْحَياةِ الدُّنْيا، وأَرْجو أَنْ يُجادِلوا عَنِّي يَوْمَ القِيامةِ. ولِتَعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ الطّاعِنينَ في نَسَبِهِم إِنَّما هُمُ الْحَسَدَةُ لأَعْقابِ إدريسَ هذا من مُنْتَمٍ إلى أَهْلِ البَيْتِ أَو دَخيلٍ فيهم، فإِنَّ ادِّعاءَ هذا النَّسَبِ الكريم دَعْوى شَرَفٍ عَريضٍ على الأُمَمِ والأَجْيال من أَهْلِ الآفاقِ، فَتَعْرِضُ التُّهْمَةُ فيه.

ولمَّا كانَ نَسَبُ بني إِدْرِيسَ هَؤُلاءِ بِمَواطِنِهم من فاسَ[1] وسائِرِ دِيارِ الْمَغربِ، قَد بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ والْوُضوحِ مَبْلَغًا لا يَكادُ يُلْحَقُ ولا يَطْمَعُ أَحَدٌ في دَرْكِهِ؛ إِذ هو نَقْلُ الأُمَّةِ والجيلِ من

[1] فاس: إحدى مدن المغرب الأقصى .

الْخَلَفِ عن الأُمَّةِ والجيل من السَّلَفِ، وبَيْتُ جَدِّهِمْ إدريس مُخْتَطُّ فاسَ ومُؤَسِّسِها بَيْنَ بُيوتِهِم، ومَسْجِدُهُ لِصْقُ مَحَلَّتِهِم ودُروبهم، وسَيْفُهُ مُنْتَضى برأْس المِئْذَنَةِ العُظْمَى من قَرارِ بَلَدِهِمْ، وغَيْرُ ذلك من آثارِهِ الَّتِي جاوَزَتْ أَخْبارُها حُدُودَ التَّواتُرِ مَرَّاتٍ، وَكادَتْ تَلْحَقُ بالْعِيانِ، فَإِذا نَظَر غَيْرُهُمْ مِن أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إلى ما أَتاهُمُ اللَّهُ مِن أَمْثالِها، وما عَضَدَ شَرَفَهُم النَّبَوِيّ من جلالِ المُلْكِ الَّذِي كان لِسَلَفِهِم بالْمَغربِ؛ واسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عن ذلك، وأَنَّهُ لا يَبْلُغُ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصيفَهُ[1]، وأَنَّ غايَةَ أَمْرِ الْمُنْتَمينَ إلى البَيْتِ الكَريمِ مِمَّنْ لم يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّواهِدِ أَنْ يُسَلِّمَ لَهُم حالهم، لأَنَّ النَّاسَ مُصَدَّقونَ في أَنْسابِهِمْ، وَبَوْنٌ ما بَيْنَ العِلْمِ وَالظَّنِّ وَاليَقينِ والتَّسْليمِ، فَإِذا عَلِمَ ذَلِكَ مِن نَفْسِهِ غَصَّ بِرِيقِهِ وَوَدَّ كَثيرٌ مِنهم لَو يَرُدّونَهمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سوقَةً وَوُضَعاءَ حسدًا من عِندِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعونَ إلى العِنادِ وَارْتِكابِ اللَّجَاجِ وَالبَهْتِ بِمِثْلِ هذا الطَّعْنِ الفائِلِ وَالقَوْلِ الْمَكْذُوبِ تَعَلُّلًا بِالْمُساواةِ في الظِّنَّةِ وَالْمُشَابَهَةِ في تَطَرُّقِ الاحْتِمالِ، وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِك. فَلَيْسَ في الْمَغْرِبِ فِيما نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا البَيْتِ الكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ في صَراحةِ نَسَبِهِ وَوُضوحِهِ مَبالِغَ أَعْقابِ إدريسَ هَذا مِنْ آلِ الحَسَنِ.

وَكُبَرَاؤُهُمْ لِهَذا العَهْد بَنو عِمران بِفاسَ من وُلْدِ يَحْيىٰ الحَوْطِيِّ بن مُحَمَّدٍ يَحْيَىٰ العَوَّامِ بنِ القاسِمِ بن إدريس بنِ إدريسَ، وَهُمْ نُقَباءُ أَهْلِ البَيْتِ هُناك، وَالسّاكنونَ بِبَيْتِ جَدِّهِمْ إدريسَ، وَلَهُمُ السِّيَادَةُ على أَهْلِ الْمَغْرِبِ كافَّةً، حَسْبَما نَذْكُرُهُمْ عِندَ ذِكْرِ الأَدارِسَةِ إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعالى.

وَيَلْحَقُ بِهَذِهِ الْمَقالاتِ الفَاسِدَةِ وَالْمَذاهِبِ الفائِلَةِ ما يَتَنَاوَلُهُ ضَعَفَةُ الرَّأْيِ من فُقَهاءِ الْمَغرِبِ منَ القَدْحِ فِي الإِمامِ الْمَهدِيِّ صاحِبِ دَوْلَةِ الموَحدينَ وَنِسْبَتِهِ إلى الشَّعْوَذَةِ وَالتَّلْبيسِ فِيما أَتَاهُ مِنَ القِيامِ بِالتَّوْحيدِ الْحَقِّ وَالنَّعْيِ عَلى أَهْلِ البَغي قَبْلَهُ، وَتَكْذيبِهِمْ لِجَميعِ مُدَّعَياتِهِ في ذلك، حَتَّى فيما يَزْعُمُ المُوَحِّدونَ أَتْباعُهُ مِن انْتِسابِهِ فِي أَهْلِ البَيْتِ. وَإِنَّما حَمَلَ الفُقَهاءَ عَلى تَكْذِيبِهِ ما كَمَنَ فِي نُفوسِهِم مِنْ حَسَدِهِ عَلى شَأْنِهِ. فَإِنَّهُمْ لما رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُناهَضَتَهُ فِي العِلْمِ والفُتْيا وفي الدّين بِزَعْمِهِمْ، ثمَّ امْتازَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَتْبوعُ الرَّأْيِ مَسْموعُ القَوْلِ مُوطَّأُ العَقِبِ نَفِسوا[2] ذلك عَلَيْهِ وَغَضُّوا مِنهُ بِالقَدْحِ في مَذَاهِبِهِ والتَّكذيبِ لِمُدَّعَياتِهِ. وأَيْضًا فَكانوا يُؤْنِسونَ مِن ملوكِ لَمْتونَةَ أَعْدائِهِ تَجِلَّةً وَكَرامَةً لَم تكُن لَهُم مِن غَيْرِهِم، لِما كانوا عَلَيْهِ مِنَ السَّذاجَةِ وَانْتِحَالِ الدِّيانَةِ. فَكَانَ لِحَمَلَةِ العِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكانٌ مِنَ الوَجَاهَةِ وَالانْتِصابِ لِلشُّورى، كُلٌّ في بَلَدِهِ وَعَلى قَدْرِهِ في قَوْمِهِ. فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ شِيعَةً لهم وَحَرْبًا لِعَدُوِّهِمْ وَنَقَموا

(١) مَثَلٌ يكنى به عن صفة مكانة شخص بالنسبة لشخص آخر . (٢) نَفِسُوا عليه : أي حسدوه .

عَلى الْمَهْدِيّ ما جَاءَ بِهِ مِنْ خلافِهِم والتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ والْمُناصَبَةِ لَهُم، تَشَيُّعًا لِلْمتونَةَ وَتَعَصُّبًا لِدَوْلَتِهِمْ. وَمَكانُ الرَّجُلِ غَيْرُ مَكانِهِمْ وَحالُهُ عَلى غَيْرِ مُعْتَقَداتِهِمْ. وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ ما نَقَمَ مِنْ أَحْوالِهِمْ وَخَالَفَ اجْتِهَاده فُقَهاؤُهُمْ، فَنَادى في قَوْمِهِ وَدَعَا إلى جِهادِهِمْ بِنَفْسِهِ، فاقْتَلَعَ الدَّوْلَةَ من أُصولِها وَجَعَلَ عالِيَها سافِلَها، أَعْظَمَ ما كانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصارًا وَحامِيَةً، وَتَساقَطَتْ في ذلك من أَتْباعِهِ نُفوسٌ لا يُحْصيها إلَّا خالِقُها قد بَايَعوهُ على الْمَوْتِ، وَوَقَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِن الْهَلَكَةِ، وتَقَرَّبوا إلى اللَّهِ تَعالى بِإتْلافِ مُهَجِهِمْ في إظْهارِ تلك الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ على الْكَلِم، وَدالَتْ[1] بالعُدْوَتَينِ[2] من الدُّوَلِ، وهو بِحالَةٍ من التَّقَشُّفِ وَالحَصَرِ والصَّبْرِ على الْمَكارِهِ والتَّقَلُّلِ من الدُّنْيا، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ وليس على شيْءٍ مِن الحَظِّ وَالمَتاعِ في دُنياهُ، حتى الْوُلْد الَّذِي رُبَّما تَجْنَحُ إليه النُّفوسُ، وَتُخادِعُ عن تَمَنِّيهِ. فَلَيْتَ شَعْرِي ما الَّذِي قَصَدَ بذلك إن لم يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ،! وهو لم يَحْصُلْ لَه حَظٌّ من الدُّنْيا في عاجِلِهِ. ومع هذا فلو كان قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لما تَمَّ أَمْرُهُ وانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ. سُنَّةُ اللَّهِ الَّتي قد خَلَتْ في عِبادِهِ.

وأَمَّا إنْكارُهُمْ نَسَبَهُ في أَهْلِ البَيْتِ فلا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لهم؛ مع أَنَّه إنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ادَّعاهُ وانْتَسَبَ إلَيْهِ فلا دَليلٌ يَقومُ على بُطْلانِهِ، لأَنَّ النّاسَ مُصَدَّقونَ في أَنْسابِهِمْ. وَإنْ قالوا: إنَّ الرِّئاسَةَ لا تَكونُ على قَوْمٍ في غير أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كما هو الصَّحيحُ حَسْبَما يَأْتي في الْفَصْلِ الأَوَّلِ من هذا الكِتابِ، والرَّجُلُ قد رَأَسَ سَائِرَ المصامِدَةِ وَدَانوا باتِّباعِهِ والانْقِيادِ إلَيْهِ وَإلى عِصابَتِهِ من هَرْغَةَ[3] حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ هذا النَّسَبَ الفَاطِمِيَّ لم يَكُنْ أَمْرُ الْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عليه ولا اتَّبَعهُ النّاسُ بِسَبَبِهِ، وَإنَّما كانَ اتِّبَاعُهُمْ له بِعَصَبِيَّةِ الهَرْغِيَّةِ وَالْمَصْمودِيَّةِ[4] وَمَكانِهِ منها وَرُسوخِ شَجَرَتِهِ فيها. وكانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الفَاطِمِيُّ خَفِيًّا قد دَرَسَ عند النّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وعند عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلونَهُ بَيْنَهُمْ. فَيَكونُ النَّسَبُ الأَوَّلُ كأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنهُ وَلَبِسَ جِلْدَةَ هَؤُلاءِ، وَظَهَرَ فيها فلا يَضُرُّه الانْتِسابُ الأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ، إذْ هو مَجْهولٌ عند أَهْلِ العِصابَةِ. وَمِثْلُ هذا واقِعٌ كَثيرًا ، إذْ كانَ النَّسَبُ الأَوَّلُ خَفِيًّا.

وانْظُر قِصَّة عَرْفَجَةَ وجَريرٍ فِي رِئاسَةِ بَجِيْلَةَ وكَيفَ كانَ عَرْفَجَةُ من الأَزْدِ ولَبِسَ جِلْدَةَ بَجِيْلَةَ حَتَّى تَنازَعَ مع جَريرٍ رِئَاسَتَهُمْ عند عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عنه - كما هو مَذْكورٌ، تَتَفَهَّمْ منه

(١) دالت: زالت. (٢) العدوتين: أي مضيق جبل طارق وما بعده من بلاد الأندلس.
(٣) هرغة : قبيلة من قبائل البربر . (٤) المصمودية : قبيلة من قبائل البربر .

وَجْهَ الْحَقِّ. واللَّهُ الهادي لِلْصَّوابِ.

وقد كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عن غَرَضِ الكِتابِ بالإِطْنابِ في هَذِهِ الْمَغَالِطِ، فقد زَلَّتْ أَقْدامُ كثيرٍ من الأَثْباتِ والمُؤَرِّخِينَ الحُفَّاظِ فِي مِثل هذه الأحاديثِ والآراءِ، وعَلِقَتْ بأَفْكارِهِمْ ونَقَلَها عَنْهُمُ الكافَّةُ من ضَعَفَةِ النَّظَر والْغَفَلَةِ عن القِياسِ، وتَلَقَّوْها هُمْ أَيضًا كذلك من غير بَحْثٍ ولا رَوِيَّةٍ وانْدَرَجَتْ في مَحْفوظَاتِهِمْ حَتَّى صارَ فَنُّ التّاريخِ واهِيًا مُختَلِطًا، وناظِرُهُ مُرتَبِكًا، وعُدَّ من مناحي العامَّةِ.

فَإِذًا يَحْتاجُ صاحِبُ هذا الفَنِّ إلى العِلْمِ بِقَواعِدِ السِّياسَةِ وطَبَائِعِ الْمَوْجوداتِ واخْتِلافِ الأُمَمِ والبِقاعِ والأَعْصارِ فِي السِّيَرِ والأَخْلاقِ والْعَوائِدِ والنِّحَلِ والْمَذَاهِبِ وسائِرِ الأَحْوالِ، والإِحَاطَةِ بالحاضِرِ من ذلك، ومُمَاثَلَةِ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الغائِبِ مِنَ الْوفاقِ أَو بَوْنِ ما بَيْنُهما من الْخِلافِ، وتَعْليلِ المتَّفِقِ منها والمُختَلِفِ، والْقِيامِ على أُصولِ الدُّوَلِ والمِلَلِ ومَبادِئِ ظُهورِها، وأَسْبابِ حُدوثِهَا ودَواعِي كَوْنِها وأَحْوالِ القائِمينَ بها وأَخْبارِهِمْ، حَتّى يَكونَ مُسْتَوْعِبًا لأَسْبابِ كل حادِثٍ، واقِفًا على أُصولِ كُلِّ خَبَرٍ. وحينَئِذ يَعْرِضُ خَبَرَ الْمَنْقُولِ على ما عِنْدَهُ مِنَ القَواعِدِ والأُصولِ، فَإِنْ وافَقَها وجَرى على مُقْتَضَاها كان صَحيحًا، وإِلَّا زَيَّفَهُ واسْتَغْنَى عنه.

وما اسْتَكْبَرَ القُدَماءُ عِلْمَ التّاريخِ إِلَّا لذلك؛ حَتَّى انْتَحَلَهُ الطَّبَرِيُّ والبُخارِيُّ وابْنُ إِسْحَقَ من قَبْلِهما، وأَمْثالُهُمْ مِنْ عُلَماءِ الأُمَّةِ وقد ذَهَلَ[1] الكثيرُ عَنْ هذا السِّرّ فيه حتى صارَ انْتِحالُهُ مَجْهَلَةً، واسْتَخَفَّ العَوامُّ ومَنْ لا رُسوخَ لَهُ فِي الْمَعارِفِ مُطالَعَتَهُ وحَمْلَهُ والْخَوْضَ فيه والتَّطَفُّلَ عليه، فاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بالْهَمَلِ واللُّبابُ بالقِشْر، والصَّادِقُ بالْكَاذِبِ. وإلى اللَّهِ عاقِبَةُ الأُمورِ.

وَمن الغَلَطِ الْخَفِيِّ في التّاريخ الذُهولُ عن تَبَدُّلِ الأَحْوالِ في الأُمَمِ والأَجْيالِ بتَبَدُّلِ الأَعْصارِ ومُرورِ الأَيّام، وهو دَاءٌ دَوِيٌّ شديدُ الْخَفَاءِ إِذْ لا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقابٍ مُتَطاوِلَةٍ، فلا يَكادُ يَتَفَطَّنُ له إِلَّا الآحادُ من أَهْلِ الخَليقَةِ. وذلك أَنَّ أَحْوالَ العالم والأُمَمِ وعَوائِدَهُمْ ونِحَلَهُمْ لا تَدومُ على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ ومِنْهاجٍ مُسْتَقِرّ، إِنَّما هو اخْتِلافٌ على الأَيّامِ والأَزْمِنَة وانْتِقالٌ مِن حالٍ إلى حالٍ كما يكُونُ ذَلِكَ في الأَشْخاصِ والأَوْقاتِ والأَمْصارِ، فكذلكَ يَقَعُ في الآفاقِ

(١) ذهل : أي لم ينتبه .

والأَقْطار والأَزْمِنَةِ والدُّوَلِ ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٥]. وقد كانَت في العالَمِ أُممُ الفُرْسِ الأُولى والسُّرْيانيُّونَ والنَّبَطُ والتَّبابِعَةُ وبنو إسرائيلَ والقِبْطُ، وكانوا على أَحْوالٍ خاصَّة بهم في دُوَلِهِمْ ومَمالِكِهِمْ وسِياسَتِهِمْ وصَنائِعِهِمْ ولُغاتِهِمْ واصْطِلَاحاتِهِمْ وسائِرِ مُشارَكاتِهِمْ مع أَبْناءِ جِنْسِهِمْ؛ وَأَحوالُ اعْتِمارِهِمْ للعالَمِ تَشْهَدُ بها آثارُهُمْ. ثم جاءَ من بَعْدِهِم الفُرْسُ الثّانِيَةُ[1] والرّومُ والعَرَبُ، فَتَبَدَّلَتْ تلك الأَحْوالُ وانْقَلَبَتْ بها العوائدُ إلى ما يُجانِسُها أَوْ يُشابِهُها، وإلى ما يُباينُها أو يُباعِدُها. ثم جاءَ الإِسْلَامُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ فانْقَلَبَتْ تلك الأَحْوالُ أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخرى، وصارَتْ إلى ما أَكثَرُهُ مُتَعارَفٌ لهذا العَهْدِ، يَأْخُذُهُ الْخَلَفُ عن السَّلَفِ. ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ العَرَبِ وَأَيّامُهُمْ وَذَهَبَتِ الأَسْلَافُ الذينَ شَيَّدوا عِزَّهُمْ، وَمَهَّدوا مُلْكَهُمْ، وَصارَ الأَمْرُ في أَيْدي سِواهُمْ من العَجَمِ مِثْلِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالفَرَنْجَةِ بِالشَّمالِ؛ فَذَهَبَتْ بِذِهابِهِمْ أُمَمٌ وَانْقَلَبَتْ أَحْوالٌ وَعَوائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُها.

والسَّبَبُ الشّائِعُ في تَبَدُّلِ الأَحْوالِ والعَوائِدِ، أَنَّ عَوائِدَ كُلِّ جيلٍ تابِعَةٌ لِعَوائِدِ سُلْطانِهِ، كما يُقالُ في الأَمْثالِ الحِكْمِيَّةِ: النّاسُ على دين الْمَلِكِ. وَأَهْلُ المُلْكِ والسُّلْطانِ إذا اسْتَوْلَوْا على الدَّوْلَةِ والأَمْرِ فَلا بُدَّ وَأَنْ يَفْزَعوا إلى عَوائِدِ مَن قَبْلَهُمْ ويَأْخُذوا الكثيرَ مِنْها ولا يُغْفِلوا عَوائِدَ جيلِهِمْ مع ذلك. فَيَقَعُ في عَوائِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ المُخالَفَةِ لِعَوائِدِ الجيلِ الأَوَّلِ. فَإِذَا جاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرى من بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ من عَوائِدِهِمْ وَعَوائِدِها خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الشَّيْءِ، وَكانَتْ لِلأُولى أَشَدَّ مُخالَفَةً. ثم لا يَزالُ التَّدْريجُ في المُخالَفَةِ حتى يَنْتَهِيَ إلى المُبايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ. فما دامَتِ الأُمَمُ وَالأَجْيالُ تَتَعاقَبُ في المُلْكِ والسُّلْطانِ، لا تَزالُ المُخالَفَةُ فِي الْعَوائِدِ والأَحْوالِ وَاقِعَةً.

والقِياسُ والمُحاكاةُ لِلإِنْسانِ طَبيعَةٌ مَعْروفَةٌ، ومن الغَلَطِ غَيْرُ مَأْمونَةٍ تُخْرِجُهُ مع الذُّهولِ وَالْغَفْلَةِ عن قَصْدِهِ، وَتَعوجُ به عن مَرامِه، فَرُبَّما يَسْمَعُ السّامِعُ كثيرًا مِنْ أَخْبارِ الماضينَ ولا يَتَفَطَّنُ لما وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ الأَحْوالِ وَانْقِلابِها، فَيُجْريها لأَوَّلِ وَهْلَةٍ على ما عَرَفَ وَيَقيسُها بما شَهِدَ، وقد يَكونُ الفَرْقُ بَيْنَهُما كثيرًا فَيَقَعُ في مَهْواة مِنَ الغَلَطِ.

فمن هذا البابِ ما يَنْقُلُهُ المُؤَرِّخونَ مِن أَحْوالِ الحَجّاجِ وَأَنَّ أَباهُ كانَ مِنَ الْمُعَلِّمينَ؛ مَع أَنَّ التَّعْليمَ لِهَذا العَهْدِ مِنْ جُملَةِ الصَّنائِعِ الْمَعاشِيَّةِ البَعيدَة مِن اعْتِزازِ أَهْلِ العَصَبِيَّةِ؛ وَالْمُعَلِّمُ

(١) أي الفرس الساسانيون.

مُسْتَضْعَفٌ مِسْكينٌ، مُنْقَطِعُ الجِذْمِ[١]. فَيَتَشَوَّفُ الكَثيرُ مِنَ المسْتَضْعَفِينَ أَهْلِ الحِرَفِ والصَّنائِعِ الْمَعاشِيَّةِ إِلى نَيْلِ الرُّتَبِ الَّتِي لَيْسوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعُدُّونَها مِنَ المُمْكِناتِ لَهُم. فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَساوِسُ الْمَطامِعِ، وَرُبَّما انْقَطَعَ حَبْلُها مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا في مَهْواةِ الهَلَكَةِ والتَّلَفِ، وَلَا يَعْلَمونَ اسْتِحالَتَها فِي حَقِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنائِعَ لِلْمَعاشِ، وَأَنَّ التَّعْليمَ صَدْرَ الإِسْلَامِ وَالدَّوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنِ العِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِناعَةً، إِنَّما كانَ نَقْلًا لِما سُمِعَ مِنَ الشّارِعِ وَتَعْليمًا لِمَا جُهِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جِهَةِ البَلَاغِ؛ فَكانَ على وَجْهِ التَّعْليمِ الصِّناعِيِّ إِذْ هوَ كِتابُهُمُ المُنْزَلُ على الرَّسولِ مِنْهُم وَبِهِ هِدايَتُهُمْ والإِسْلَامُ دينُهُمْ، قاتَلوا عَلَيْهِ وَقُتِلوا، وَاخْتُصُّوا بِهِ مِنْ بَينِ الأُمَمِ وَشُرِّفوا، فَيَحْرِصونَ على تَبْليغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلأُمَّةِ؛ لا تَصُدُّهُم عَنْهُ لائِمَةُ الكِبْرِ وَلا يَزَعُهُمْ عاذِلُ الأَنَفَةِ. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ بَعْثُ النَّبِيِّ ﷺ كِبارَ أَصْحابِهِ مَعَ وُفُودِ العَرَبِ يَعَلِّمونَهُمْ حُدودَ الإِسْلامَ ومَا جاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّين. بَعَثَ في ذَلِكَ مِنْ أَصْحابِهِ العَشَرَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ. فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الإِسْلَامُ وَوَشَجَتْ عُرُوقُ المِلَّةِ حَتَّى تَناوَلَها الأُمَمُ البَعيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِها، وَاسْتَحالَتْ بِمُرورِ الأَيَّامِ أَحْوالُها، وَكَثُرَ اسْتِنْباطُ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصوصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقائِعِ وَتَلَاحُقِها، فَاحْتاجَ ذَلِكَ القانونُ لِمَن يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَأ وصَارَ العِلمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلى التَّعَلُّم فَأَصبَحَ من جُمْلَةِ الصّنائِعِ والحِرَفِ كما يأتي ذِكْرُهُ في فَصْلِ العِلمِ والتَّعْليمِ واشْتَغَلَ أَهْلُ العَصَبِيَّةِ بالقيامِ بالمُلْكِ والسُّلْطَانِ، فَدُفِعَ لِلعِلمِ مَن قَامَ به منْ سِواهُمْ، وأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعاشِ، وشَمخَتْ أُنوفُ المُتْرَفينَ وأَهْلِ السُّلْطانِ عن التَّصَدِّي للتَّعْليم، واخْتُصَّ انْتِحالُهُ بالمُسْتَضْعَفِين وصارَ مُنْتَحِلُهُ مُحتَقَرًا عند أَهْلِ العَصَبِيَّةِ والمُلْكِ. والْحَجَّاجُ بنُ يوسُفَ[٢] كانَ أَبوهُ من ساداتِ ثَقيفٍ وأَشْرَافِهِمْ، ومَكانُهُمْ من عَصَبِيَّةِ العَرَبِ ومُناهَضَةِ قُرَيْشٍ في الشَّرَفِ ما عَلِمْتَ. ولم يَكُنْ تَعْليمُهُ لِلْقُرآنِ على ما هو الأَمْرُ عَلَيْهِ لهذا العَهْدِ من أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعاشِ، وَإِنَّما كانَ على ما وَصَفْناهُ من الأَمْرِ الأَوَّلِ في الإِسْلامِ.

ومن هذا البابِ أَيْضًا ما يَتَوَهَّمُهُ المُتَصَفِّحونَ لِكُتُبِ التّاريخِ إِذ سمعوا أَحْوالَ القُضاةِ وما كانوا عليه من الرّياسَةِ في الحُروبِ وقَوْدِ العَساكِرِ، فَتَتَرامى بهم وَساوِسُ الهِمَمِ إِلى مِثْلِ تِلْكَ الرُّتَبِ، يَحْسَبونَ أَنَّ الشَّأْنَ في خُطَّةِ القَضاءِ لهذا العَهْدِ على ما كانَ عَليهِ من قَبلُ يَظُنُّونَ بابْنِ أَبِي عامِرٍ صاحِبِ هشامٍ المُستَبِدِّ عليه وَابْنِ عَبّادٍ من ملوكِ الطَّوائِفِ بِإِشْبيليَةَ إِذا سمعوا أَنَّ

(١) الجذم : الأصل.

(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي ، أبو محمد : قائد، داهية، سفاك دماء، خطيب، ولد في الطائف إحدى مدن الحجاز (٤٠ هـ - ٦٦٠ م) ومات سنة (٩٥ هـ - ٧١٤ م). انظر ترجمته ، وفيات الأعيان ١٢٣/١ .

آباءَهُمْ كانوا قُضاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقُضاةِ لهذا العَهْدِ؛ وَلا يَتَفَطَّنونَ لما وَقَعَ في رُتْبَةِ القضاءِ من مُخالَفَةِ العَوائِدِ كما نُبَيِّنُه في فَصْلِ القَضاءِ من الكِتابِ الأَوَّلِ. وَابْنُ أَبِي عامِرٍ وَابْنُ عَبّادٍ كانا من قَبائِلِ العرَبِ القائِمينَ بالدَّوْلَةِ الأُمَويَّةِ بالأَنْدَلُس وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِها، وكانَ مَكانُهُمْ فيها مَعْلومًا، ولم يَكُنْ نَيْلُهُمْ لما نالوهُ من الرِّياسَةِ والمُلكِ بِخُطَّةِ القضاءِ كما هي لهذا العهْدِ؛ بل إِنَّما كانَ القضاءُ في الأَمْرِ القديمِ لأَهْلِ العصَبِيَّةِ من قَبيلِ الدَّوْلَةِ ومواليها، كما هي الوزارَةُ لِعَهْدِنَا بالْمَغْرِب. وَانْظُرْ خُروجَهُمْ بِالْعساكِرِ فِي الطَّوائِفِ وَتَقْليدَهُمْ عَظائِمَ الأُمورِ التّي لا تُقلَّدُ إِلَّا لِمَن له الغِنى فيها بالعِصَبِيَّةِ فَيَغْلَطُ السّامِعُ في ذلك ويَحْمِلُ الأَحْوالَ على غَيْرِ ما هي. وأَكثَرُ ما يَقعُ في هذا الغَلَطِ ضُعفاءُ البَصائِرِ من أَهْلِ الأَنْدَلُس لهذا العهْدِ، لِفقْدَانِ العصَبِيَّةِ في مواطِنِهِمْ منذ أَعصارٍ بعيدَةٍ، لفَناءِ العرَبِ ودَوْلَتِهِمْ بها؛ وَخُروجِهِمْ عَن مَلَكَةِ أَهْلِ العَصَبِيَّاتِ من البَرْبَرِ؛ فَبَقِيَتْ أَنْسابُهُمُ العرَبِيَّةُ مَحْفوظَةً، والذَّريعةُ إلى العِزّ من العصَبِيَّةِ والتّناصُر مفْقودَة، بل صاروا من جُمْلَةِ الرّعايا المُتَخاذِلينَ الَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ القَهْرُ، وَرَئِموا[1] لِلْمَذَلَّةِ؛ يَحْسَبونَ أَنَّ أَنْسابَهُمْ مع مُخالَطَةِ الدَّوْلَةِ هي التّي يكُون لهم بها الغَلَبُ وَالتَّحَكُّمُ؛ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحِرَفِ وَالصَّنائِعِ منهم مُتَصَدِّينَ لِذَلِكَ ساعينَ في نَيْلِه. فَأَمَّا مَنْ باشَرَ أَحْوالَ القَبائِلِ وَالعَصَبِيَّةِ وَدُولَهُمْ بِالعُدْوَةِ الغَرْبِيَّةِ، وَكَيْفَ يَكونُ التَّغَلُّبُ بَينَ الأُمَمِ وَالعَشائِرِ، فَقَلَّما يَغْلَطُونَ في ذَلِكَ وَيُخْطِئُونَ في اعْتِبارِهِ.

وَمِن هذا البابِ أَيْضًا ما يَسْلُكُهُ المُؤَرِّخونَ عند ذِكْرِ الدُّوَلِ وَنَسْقِ مُلوكِها فَيَذْكُرونَ اسْمَهُ ونَسَبَهُ وَأَباهُ وَأُمَّهُ وَنِساءَهُ وَلَقَبَهُ وخاتَمَهُ وقاضِيَهِ وحاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ؛ كُلُّ ذَلِكَ تَقْليدٌ لِمُؤَرِّخِي الدَّوْلَتَينِ مِن غَيْرِ تَفَطُّنٍ لِمَقاصِدِهِمْ. وَالمُؤَرِّخونَ لِذَلِكَ العَهْدِ كانوا يَضَعونَ تَواريخَهُمْ لأَهْلِ الدَّوْلَةِ، وَأَبْناؤُها مُتَشَوِّفونَ إِلى سِيَرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوالِهِمْ لِيَقْتَفوا آثارَهُم وَيَنْسِجوا على مِنْوالِهِمْ، حَتَّى في اصْطِناعِ الرِّجالِ من خَلَفِ دَوْلَتِهِمْ وتَقْليدِ الخِطَطِ وَالْمَراتِبِ لأَبْنَاءِ صَنائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ. وَالقُضاةُ أَيْضًا كانوا مِن أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَفي عِدادِ الْوُزَراءِ كما ذَكَرْناه لَك؛ فَيَحْتاجونَ إِلى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّه. وَأَمَّا حينَ تَبايَنَتِ الدُّوَلُ، وَتَباعَدَ مَا بَيْنَ العُصورِ، وَوَقَفَ الغَرَضُ على مَعْرِفَةِ المُلوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خاصَّة، وَنِسَبِ الدُّوَلِ بَعْضِها مِن بَعْضٍ في قُوَّتِهَا وَغَلَبَتِهَا، وَمَن كانَ يُناهِضُها مِنَ الأُمَمِ أَوْ يُقَصِّرُ عَنها، فما الفائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هذا العَهْدِ فِي ذِكْرِ الأَبْناءِ وَالنِّساءِ وَنَقْشِ الْخَاتَمِ وَاللَّقَبِ وَالقاضي وَالوَزِيرِ وَالْحاجِبِ مِن دَوْلَةٍ قَديمةٍ لا

(١) رئموا للمذلة : أي ألفوها.

يَعْرِفُ فيها أُصولَهُم ولا أَنْسابَهُمْ ولا مَقاماتِهِم؟ إِنَّما حَمَلَهُم على ذلك التَّقْليدُ وَالغَفْلَةُ عن مَقَاصِدِ المُؤَلِّفينَ الأَقْدَمِينَ، وَالذُّهولُ عَن تَحَرّي الأَغْراضِ مِنَ التّاريخ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا ذِكْرُ الوُزَراءِ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثارُهُم وَعَفَتْ على المُلوكِ أَخْبارُهُم، كالحَجَّاجِ وَبَني المُهَلَّبِ وَالبَرَامِكَةِ وَبَني سَهْلِ بنِ نوبَخْتَ وَكافورٍ الأَخْشيدِيِّ وابنِ أَبي عَامِرَ وَأَمْثالِهِم، فَغَيْرُ نَكيرٍ الإِلْمَاعُ بِآبائِهِم وَالإِشارَةُ إِلى أَحْوالِهِمْ لانْتِظامِهِمْ في عِدادِ المُلوكِ.

وَلْنَذْكُرْ هُنا فَائِدَةً نَخْتِمُ كلامَنا في هَذا الْفَصْلِ بها، وَهِيَ أَنَّ التّاريخَ إِنَّما هُوَ ذِكْرُ الأَخبارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرٍ أَوْ جِيلٍ. فَأَمَّا ذِكْرُ الأَحْوالِ العامَّةِ لِلآفاقِ وَالأَجْيالِ وَالأَعْصارِ فَهوَ أُسٌّ[1] لِلْمُؤَرِّخِ تَنْبَني عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبَيَّنُ بِهِ أَخْبارُهُ. وَقَد كانَ النّاسُ يُفْرِدونَهُ بِالتَّأْلِيفِ؛ كما فَعَلَهُ الْمَسْعودِيُّ في كِتابِ «مُروجِ الذَهَبِ»؛ شَرَحَ فيه أَحْوالَ الأُمَمِ وَالآفاقِ لِعَهْدِهِ في عَصْرِ الثّلاثينَ وَالثَّلاثِمائَةِ غَرْبًا وَشَرْقًا، وَذَكَرَ نِحَلَهُمْ وَعَوائِدَهُمْ وَوَصَفَ البُلْدَانَ وَالجِبالَ وَالبِحارَ وَالْمَمالِكَ وَالدُّوَلَ وَفِرَقَ شُعوبِ العَرَبِ وَالعَجَمِ؛ فَصَارَ إِمامًا لِلْمُؤَرِّخينَ يَرْجِعونَ إِلَيْهِ، وَأَصْلًا يُعَوِّلونَ في تَحْقيقِ الكَثيرِ من أَخْبارِهِمُ عَلَيْهِ. ثم جاءَ البَكْرِيُّ مِن بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذلك في «الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ» خاصَّةً دون غَيْرِها مِنَ الأَحْوالِ؛ لأَنَّ الأُمَمَ وَالأَجْيالَ لِعَهْدِهِ لم يَقَعْ فيها كثيرُ انْتِقالٍ وَلا عَظيمُ تَغَيُّرٍ. وَأَمَّا لِهَذا العَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمَائَةِ الثّامِنَةِ فقَدِ انْقَلَبَتْ أَحوالُ الْمَغْرِبِ الَّذِي نَحْنُ شاهِدُوهُ وتَبَدَّلَتْ بالجُملَةِ، وَاعْتاض[2] من أَجْيالِ البَرْبَرِ أَهْله على الْقَدَمِ بِمَن طَرأَ فيه من لَدُنِ المائَةِ الخامِسَةِ من أَجْيالِ العَرَبِ بما كَسَروهُمْ وغَلَبوهُمْ وانْتَزَعوا منهم عامَّةَ الأَوْطانِ وشارَكُوهُمْ فيما بَقِيَ من البُلْدَانِ لِمُلْكِهِمْ؛ هَذا إِلى ما نَزَلَ بالْعُمْرانِ شَرْقًا وغَرْبًا في مُنْتَصَفِ هَذِهِ الْمَائَةِ الثّامِنَةِ من الطَّاعونِ الجَارِفِ، الَّذِي تَحَيَّف[3] الأُمَمَ وذَهَبَ بِأَهْلِ الجيلِ، وطَوى كَثيرًا من مَحاسِنِ العُمْرانِ ومحاها، وجاءَ للدُّوَلِ على حين هَرَمِها وبُلوغِ الغايَةِ من مَداها، فَقَلَّصَ من ظِلالِها وفَلَّ من حَدِّها، وأَوْهَنَ من سُلْطانِها، وتَداعَت إِلى التّلاشي والاضْمِحْلالِ أَحْوالُها، وَانْتَقَضَ عُمْرانُ الأَرْضِ بانْتِقاضِ البَشَرِ، فَخَرِبَتِ الأَمْصارُ وَالْمَصَانِعُ، وَدَرَسَتِ السُّبُلُ والْمعالمُ وخَلَتِ الدِّيَارُ والْمَنازِلُ، وضَعُفَتِ الدُّوَلُ والقبائِلُ، وتَبَدَّلَ السَّاكِنُ. وَكَأَنِّي بالْمَشْرِقِ قد نَزَلَ به مِثْلُ ما نَزَلَ بالْمَغْرِبِ، لكنْ على نِسْبَتِهِ ومِقدارِ عُمْرانِهِ. وَكَأَنَّما نادى لِسانُ الكَوْنِ في العالمِ بِالخُمولِ والانْقِباضِ فبادَرَ بالإِجابَةِ. واللَّهُ وارِثُ الأَرْضَ ومَن

(١) الأُسّ : الأساس .
(٢) اعتاض : استبدل . (٣) تحيّف : ظلم.

عَلَيْها. وَإِذا تَبَدَّلَتِ الأَحْوالُ جُمْلَةً فَكَأَنَّما تَبَدَّلَ الْخَلْقُ من أَصْلِهِ، وتَحَوَّلَ العالمُ بأَسْرِهِ، وكَأَنَّهُ خَلْقٌ جَديدٌ، ونَشْأَةٌ مُستَأْنَفَةٌ وعالمٌ مُحْدَثٌ. فاحْتاجَ لهذا العَهْدِ مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوالَ الْخَليقَةِ والآفاقِ وأَجْيالَها والعَوائِدَ والنِّحَلَ التي تَبَدَّلَتْ لأَهْلِها، ويَقْفو مَسْلَكَ الْمَسعودِيِّ لِعَصْرِهِ ليكُونَ أَصْلًا يَقْتَدي به مَن يَأْتي من المُؤَرِّخينَ من بَعْدِهِ.

وأَنا ذاكِرٌ فِي كِتابِي هَذا ما أَمْكَنَنِي منه في هذا القُطْرِ الْمَغْرِبِي إِمَّا صَريحًا أَوْ مُنْدَرِجًا في أَخْبارِهِ وتَلْويحًا، لاخْتِصاصِ قَصْدي فِي التَّأْليفِ بالْمَغْرِبِ، وأَحْوالِ أَجْيالِهِ وأُمَمِهِ، وذِكْرِ مَمالِكِهِ ودُوَلِهِ دونَ ما سِواهُ مِنَ الأَقْطارِ، لِعَدَمِ اطِّلاعي على أَحْوالِ الْمَشْرِقِ وأُمَمِهِ، وأَنَّ الأَخْبارَ المُتَناقَلَةَ لا تُوَفِّي كُنْهَ ما أُريدُهُ منه. والمَسْعودِيُّ إِنَّما اسْتَوفى ذلك لِبُعْدِ رِحْلَتِهِ وتَقَلُّبِهِ في البلادِ، كما ذَكَرَ في كِتابِهِ؛ مع أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَّرَ في اسْتيفاءِ أَحْوالِهِ؛ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وَمَرَدُّ العِلْمِ كلِّهِ إِلى اللَّهِ، وَالْبَشَرُ عاجِزٌ قاصِرٌ، وَالاعْتِرافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ، وَمَنْ كانَ اللَّهُ في عَوْنِهِ تَيَسَّرَتْ عليه الْمَذاهِبُ وَأُنْجِحَتْ له الْمَساعي وَالْمَطالِبُ. ونحنُ آخِذونَ بِعَوْنِ اللَّهِ فيما رُمناهُ من أَغْراضِ التَّأْليفِ، واللَّهُ المُسَدِّدُ والمُعينُ وعَلَيْهِ التُّكْلانُ.

وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُروفِ التي لَيْسَتْ من لُغاتِ العَرَبِ إِذا عَرَضَتْ في كِتابنا هذا.

اعْلَمْ أَنَّ الحُروفَ في النُّطْقِ كما يَأْتي شَرْحُهُ بَعْدُ، هي كَيْفِيَّاتُ الأَصْواتِ الْخَارِجَةِ من الحنْجرَةِ تَعْرِضُ من تَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرْعِ اللَّهاةِ وأَطْرافِ اللسانِ مَعَ الحَنَكِ والْحَلْقِ وَالأَضْراسِ، أَوْ بِقَرْعِ الشَّفَتَيْنِ أَيْضًا، فَتَتَغايَرُ كَيْفِيَّاتُ الأَصْواتِ بِتَغايُرِ ذَلِكَ القَرْعِ، وَتَجِيءُ الحُروفُ مُتَمايِزَةً في السَّمْعِ، وتَتَرَكَّبُ منها الكَلِماتُ الدَّالَّةُ على ما في الضَّمائِرِ. ولَيْسَتِ الأُمَمُ كُلُّها مُتَساوِيَةً في النُّطْقِ بِتِلْكَ الحُرُوفِ. فقد يكون لأُمَّةٍ من الحروفِ ما ليسَ لأُمَّةٍ أُخْرَى. والحروفُ التي نَطَقَتْ بِهَا العَرَبُ هي ثَمانِيَةٌ وعِشْرونَ حَرفًا كما عَرَفْتَ. ونَجِدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُروفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنا، وفي لُغَتِنا أَيضًا حُروفٌ لَيْسَتْ في لُغَتِهِمْ، وكذلك الإِفْرَنْجُ والتُّرْكُ والبَرْبَرُ وغَيْرُ هَؤُلاءِ من الْعَجَمِ. ثمَّ إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ من العَرَبِ اصْطَلَحوا في الدَّلالَةِ على حُروفِهِم الْمَسْموعَةِ بأَوْضاعِ حُروفٍ مكْتوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بأَشْخاصِها، كَوَضْعِ أَلِفٍ وباءٍ وجيمٍ وراءٍ وطاءٍ إِلى آخِرِ الثَّمانِيَةِ والعِشْرين؛ وإِذا عَرَضَ لَهُم الحرفُ الَّذِي ليس من حروفِ لغَتِهِم بَقِيَ مُهْمَلًا عن الدَّلالَةِ الكِتابِيَّةِ مُغْفَلًا عن البَيانِ، وَرُبَّما يَرْسُمُهُ بَعْضُ الكُتَّابِ بِشَكْلِ الحرفِ

الَّذِي يَكْتَنِفُهُ من لُغَتِنا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ. وليسَ ذَلِكَ بكافٍ في الدّلالةِ؛ بَلْ هو تَغْييرٌ للحَرْفِ من أَصْلِهِ. ولما كانَ كِتابُنا مُشْتَمِلًا على أَخْبارِ البَرْبَرِ وَبَعْض العَجَم، وكانَتْ تَعْرِضُ لنا في أَسْمائهم أَو بَعْضِ كَلِماتهم حُروفٌ لَيْسَتْ من لُغَةِ كِتابُنا ولا اصْطلاحِ أَوْضاعِنا، اضْطُرِرْنا إلى بَيانِهِ ولم نَكْتَفِ بِرَسْمِ الحرفِ الَّذِي يَلِيهِ كما قُلْناهُ؛ لأَنَّهُ عِندنا غَيْرُ وافٍ بالدَّلالَةِ عَلَيهِ. فاصْطَلَحْتُ في كِتابي هَذا على أَنْ أَضَعَ ذَلك الحرفَ العَجَمِيِّ بِمَا يَدُلُّ على الحَرْفَينِ اللَّذَيْنِ يَكْتَنِفانِهِ، لِيَتَوَسَّطَ القارِئُ بالنُّطْقِ بِهِ بين مَخرَجَي ذَيْنكَ الحَرْفَينِ، فَتَحْصُلُ تَأْدِيَتُهُ وإِنَّما اقْتَبَسْتُ ذلك من رَسمِ أَهْلِ المُصْحَفِ حروفَ الإِشمامِ، كالصِّراطِ فِي قِراءَةِ خَلَفٍ[1]، فَإِنَّ النُّطْقَ بصادِهِ فيها مُعْجَمٌ مُتَوَسِّطٌ بينَ الصّادِ والزّاي، فَوَضَعوا الصّادَ ورَسموا في داخِلِها شَكْلَ الزّاي، ودَلَّ ذلك عِندَهُمْ على التَّوَسُّطِ بين الحرفَينِ. فكذلك رَسَمْتُ أَنا كلَّ حَرْفٍ يَتَوسَّطُ بين حرفَينِ من حروفِنا، كالْكافِ المُتوَسِّطَةِ عند البَرْبَرِ بين الكافِ الصَّريحةِ عِندنا والجيم أَوِ القافِ؛ مِثْلِ اسْمِ بُلُكِّينَ فأَضَعُها كافًا وأَنْقُطُها بنُقْطَةِ الجيم واحِدَةً من أَسْفَلَ أَو بنُقْطَةِ القافِ واحِدَةً من فَوْقُ أَوِ اثْنَتَيْنِ، فيَدُلُّ ذلكَ على أَنَّهُ مُتوَسِّطٌ بين الكافِ والجيمِ أَوِ القافِ. وهذا الحرفُ أَكْثَرُ ما يجيءُ في لُغَةِ البَرْبَرِ. وما جاءَ من غَيْرِهِ فعلى هذا القِياسِ أَضَعُ الحرْفَ المُتَوَسِّطَ بين حَرفَينِ من لُغَتِنا بالحرفَيْنِ مَعًا، ليَعْلَمَ القارِئُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ به كذلك؛ فَنَكونُ قد دَلَلْنا عليهِ. ولو وضَعْناهُ بِرَسْمِ الحرفِ الواحِدِ عن جانِبَيْهِ لكنَّا قد صَرَفناهُ من مَخْرَجِهِ إِلى مَخْرَجِ الحرفِ الَّذِي من لُغَتِنا وغَيَّرْنا لُغَةَ القوْمِ. فاعْلَمْ ذلك، واللَّهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوابِ بِمَنِّه وفَضْلِهِ.

(١) خلف بن هشام البزار ، الأسدي ، أبو محمد : أحد القُرّاء العشرة .